الجزء الثاني

حدود المعرفة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الاول

صوت العاصفة

جلسوا يخيم عليهم الصمت ، ثلاثة اصدقاء مع صديق لهم . وهو رجل يطيل التفكير ، ويخاف الله ، وقد كان فيما مضى ذا شهرة وثروة ، ثم فاجأته النكبات فنزلت به تترى ، كالقنابل الهابطة من صدر الظلام ، فحطمت حياته . وقد ذُبح اولاده وتلاشت ثروته ، وما كاد يثكل ويفتقر ، حتى حلّ به مرض كريه ، وصار لا رجاء له ولا شيء يتطلع اليه سوى الموت . فالمرض يعذبه ولا يقضي عليه ، وحياته كلها ، وكل ما صنعه فيها ، وكل ما استأثر بفكره ، أضحى لا معنى له ولا قيمة . ومع ان اصدقاءه اتوا ليؤاسوه في بؤسه ، فليس في وسعه ان يراهم او ان يتحدثوا معهُ .

وبعد أيام وليال ، تراه يفتح فمه المطبق منذ زمن طويل ، ويتكلم . فهو يلعن اليوم الذي ولد فيه ، ويودّ لو انه لم

يستنشق نسمة الحياة الاولى ، لان وجوده ، اما فقد معناه واما هو قاس مرير لا يطاق . والحياة الخالية من المعنى ليست جديرة بما تقتضيه الحياة من كدح ودأب ، اما الحياة القاسية فانما هي شرك نصبه ابليس علوي .

سمعه اصدقاؤه فريعوا ، فقد جاؤا ليؤاسوه ويساعدوه على التوبة عن آثامه ، لا ليستمعوا اليه يندد بالكون . وليس يسعهم ان يصدقوا انه ناقم على الحياة كلها ، لان ذلك هو التجديف على الله ، ولا هم يوافقونه على ان الحياة خلو من المعنى ، فيقولون له انه ارتكب إثماً ولا ريب ، فهو اذا آثم وان ذلك سبب عذابه .

كلا ، فهو ينكر ما يقولون ، فقد عاش حياة فيها من البر والصلاح اقصى ما يستطيعه البشر ، والحراب الذي نكب به لا يمكن ان يكون قصاصاً عادلا . ولا يجوز ان يحكم على احد قد بذل غاية ما في الوسع ، واذن فظلم العالم لا يقبله عقل ولا منطق ، وعدل الله ليس عدلاً على الاطلاق ، فيأبى اصدقاؤه مروعين ان يسلموا بما يقول ، ثم يبدئ ويعيد ، ضارباً باحتجاجهم عرض الحائط ، ويطلب منهم ان يذكروا له سبباً لما حلّ به . اما هو فلا يرى سبباً على الاطلاق ، واما هم فلا يستطيعون ان يذكروا له سبباً مقبولاً لديه .

وبعد اخذ وردّ كلاهما طويل قويّ . وجدل عنيف في هذا الموضوع الذي يمزق النفس ألماً ، اخلد الرجل المبتلى

واصدقؤه الى السكون ، ثم تكلم احدهم وكأنه يثرثر ثم سكن صوته ، فالكلام البشري لا يجدي ، والفكر البشري عاجز في هذا الخواء .

واذا الصوت الذي جلجل في الارض قبل ان يخلق البشر ، يملأ الفضاء فوق رؤوسهم : هذا صوت عاصفة عاتية ، وهو ابلغ تعبيراً عن الكون من اي صوت بشري . سمعه الرجل المعذّب ، فكأن الله عزّ وجلّ يخاطبه فيه . ولم تكن الكلمات التي سمعها كلمات تبعث على الطمأنينة ، او وعوداً كريمة ، بل كانت سلسلة قاهرة من الاسئلة التي تتحدى الجواب ، فتوالت عليه مدمدمة في لعلعات الرعد ، تفصل بينها رؤى باهرة تسفر عنها ومضات برق خاطف . وكأن الاسئلة جعلت تتعاظم حتى صارت اعلاناً للقوة والعجب والمجد ، والاعلان يحدّث بأن الكون ليس خيّراً او شريراً ، ولا هو عادل او ظالم ، فهذه الالفاظ حقيرة . الكون لغز ! وكما تنطوي الغمامة على قوة ، فالكون ايضاً يحتوي على عظمة ومجد . فينبغي للانسان ان يسأل ، فهذه طبيعته ، وينبغي للانسان أن يؤمن بان الله خير ، وإنْ تساءل كيف يكون ذلك ؟ اما واجبه الأعلى ، قبل ان يسأل او ان يؤمن ، فهو ان يستشعر المهابة والخشوع . الانسان صغير وكون الله عظيم . الانسان محدود في الزمان والمكان وكون الله لا حد له ولا نهاية . يستطيع الانسان ان يعرف اشياء قليلة ، وأن يلحف في

السؤال ، فالكون حافل بأشياء لن يتاح له ان يعرفها ، وفيه من الاشياء الدقيقة المعقدة والباهرة ، ما لا يستطيع ان يعرفه او يدخله في نطاق خبرته . فالكوكب النائي ، والطائر الجارح القوي ، يخضعان لنواميس لم يضعها الانسان ، ولا في وسعه ان يسيطر عليها ، ولن يدخل في طاقته ان يفهمها سوى فهم غامض .

ويجلجل الصوت مرة بعد مرة ، فكأن هزيم الرعد موسيقى تقول :

أفي وسعك ان تقيد ما للثريا من آثار حلوة ،

أو ان تفكّ اواصر الجبار ؟

أفي وسعك ان تجيء بربّ الحصب في موسمه

أو ان ترشد الرامي مع ابنائه ؟

أيطير الصقر بحكمتك

ويبسط جناحيه الى الجنوب ؟

أتحلق العقاب بأمرك

وتبني عشها في الاعالي ؟

واذ تنطلق دمدمة الصوت ماضية الى رحاب الفضاء ، يحني الرجل المصاب رأسه ، من عجب وخضوع لا من الم ،

فحكمة الكون من وراء المعرفة البشرية ، وعلى ان الفكر شيء لا غنى للحياة عنه ، فلن يكون في وسعه ان يبلغ أقصى الاعماق . هناك البصيرة وشعور المهابة والخشوع :

« تكلمت فقلت اني لا ادرك

فثمة أشياء فوق قدرتي ، لم اعرفها ،

لقد سمعت عنك بأذني التي تسمع ،

اما الآن فعيني تراك » .

وكذلك ينتهي سفر ايوب وهو من اعظم كتب التخيل الشعري الديني ، بشعور الدهشة والاعتراف بضعف الانسان وقصوره . ولا يعلم احد من كتب ذلك السفر . بل يلوح ان فئة من الكتاب اشتغلت به ، ومن البيّن ان عبقريين وضعا قسميه الرئيسيين ، احدهما الّف البيان الذي يعلن العجز عن حل مشكلة الالم ، وتذمر الانسان من الله ، عزّ وجلّ ، وثانيهما ردّ عليه بأن اعلن في نبرات نبوية حقاً ، ان الكون كله فوق طاقة المعرفة البشرية ، ومع ذلك فهو جدير بالتسبيح والابتهال . ففي وسع الانسان ان يفهم بعضه ، وان يتكهن ببعضه ، ولكن لن يكون في وسعه ان يعرف كل شيء .

الفصل الثاني

لن تعرف كل شيء

إن سفر ايوب يفرغ في قالب شعري تجربة أصيلة يبلوها كل انسان ، وهي تجربة تبدأ في عهد الطفولة الاولى ، وتمتد (ان لم تحدّر او تكبت) الى آخر ايام الشيخوخة . وهي اشد دفعاً للناس من العاطفة ، واليها يعود اكبر عدد من المآثر التي تميزنا عن الحيوان . هذه التجربة هي الشعور بالعجب والانبهار .

ما اغرب هذا الشعور ، فهو يجمع بين الرغبة في المعرفة وإدراك المرء بأنه ليس في وسعه ان يعرف كل شيء . هو دهشة دائمة . شعور يسلم بالعلم والمنطق ثم يتعداهما وينساهما . ففي دخيلة كل منا ، من المتوحش في ادغال الامازون الى العالم المحلّل في معمل الابحاث ، من الفتاة السويدية في المصنع الى صياد السمك في المالايو ، من الدبلوماسي الى الشرطي السرّي ، من الشاعر الى الفلاح ، شعورٌ بالاغتباط وتسليمٌ بالاشياء التي نستطيع ان نعرفها ونعالجها ، ولكن الى جانب

هذا الشعور ، هناك ادراك مبهور بوجود سر او لغز ينساب من الكون . حتى ادنى الرجال الى النجاح العملي — الثريُّ المظفَّر أو السياسيُّ القويّ — يرتدّ الى ماضيه فيدهشه ما يستذكره من مخاطر نجا منها او إخفاق تخطاه وغلب عليه ، وهو مع ذلك يعرف أنه لا يستطيع ان يتكهن بما قد يحدث له في يومه المقبل . اما العامل الكادح البليد الذهن الخالي الرجاء ، فتراه يرفع بصره في حين بعد حين ، لان شيئاً غريباً يقع ، ثم يمضي في حياته ، لانه من المستحيل ان يُخطط المستقبل كله . واحكم العلماء يرى ان كل حق يكشف عنه ، يفضي به الى اسئلة عن اشياء لم تدرك ، فلا ينفك يقف ، «كراصد السماء متى رأى كوكباً سياراً قد دخل مجال بصره» واذا هو يتفرس في ابسط الاشياء ، كورقة خضراء او جرثومة او قطرة دم او صخرة ، فكأن نظره لم يقع عليها من قبل ، طوال حياته ، فيعلم ان عقله لن يحيط بها ابداً .

ان عقلنا يريد ان يحيط بكل شيء ولكنه يدرك انه لا يستطيع . هذه هي المفارقة ، اذ ينبغي للمعرفة ان تعرف حدودها .

ومن الواضح ان هناك نوعين مختلفين من الحدود المفروضة على المعرفة البشرية ، اما الاول فهو نوع يفرضه البشر انفسهم ، واما الثاني فأصيل في تركيب العقل وصلته بالكون . اما اصدقاء ايوب فقد كانت معرفتهم مقيّدة بالنوع الاول من الحدود ، واما ايوب نفسه فقد ادرك النوع الثاني وسلّم به .

الفصل الثالث

العوائق الخارجية

إن قدرة العقل البشري على العمل تفوق كل جهد قام به العقل على الاطلاق ، والرجل السويّ يستعمل جميع عضلاته خلال حياته بعد البلوغ ، ولكنه يدع اجزاء كبيرة من مخّه ، قد تبلغ ثلثيه ، في سبات عميق . ولن تجد بين كبار المفكرين المبدعين رجلًا شكا قصور عقله عن مجاراة ما يطلبه منه ، او ان مخّه كان اداة غليظة مفلولة الحد ، بل على الضد تجدهم يعترفون بان الحياة تشرف على ختامها ، قبل ان يتعلموا كيف ينتفعون بعقولهم أكمل انتفاع وأتمه .

فلماذا نجد هذا العدد الكبير من الجهلة والسخفاء في العالم ؟

ليس ثمة ريب في ان سبب ذلك هو ان بعضهم — كأفراد — يسيئون استعمال العقل ، وان غيرهم يعيش في جماعات تثبط نشاط الفكر .

الكسل

كثيرون من الناس في جميع ارجاء الارض هم افراد كسالى. فيدعون العقل الذكيّ المتوثب الذي كانوا يستمتعون به في شبابهم، لَقىً مهملاً لا ينتفعون به خلال بقية حياتهم، فتتراكم فوقه طبقة من الاعمال الرتيبة، او يأكله الصدأ من قيل وقال لا يغنيان، او تسد مسامه ثرثرات لا معنى لها تؤخذ من الصحف والاذاعة، او يهمل استعماله الا في علاج المشكلات اليومية، او في استعادة لا تنتهي لذكريات ايام مضت. ويستطيع العقل النشيط في كثير من الاحيان ان ينضو عن نفسه هذه اللفائف، ويطلب العمل، واذا صاحبه يلهيه بعمل لا يجدي ولا يوائم. وكثير من الرجال الذين يكرهون على غير وعي منهم، السأم والرتابة في حياتهم، يحاولون ان يخففوا من ضجرهم، بالتفكير — ولكنهم لا يفكرون فيما ينبغي لهم ان يفكروا فيه، فيحاول بعضهم ان يستذكر اسماء الجياد الثلاثة الاولى في السباقات الكبيرة منذ اربعين سنة، او معدل النجاح لالفين من كبار لاعبي الكرة. وكثيرات من النساء تجدن اعظم غبطة عقلية في ان تجمع احداهن وتبوّب طائفة كبيرة من المعلومات الاجتماعية: عن صلات الزواج والقرابة بين الناس، ومواطن الضعف في هـــذه الاسرة وتلك، وهكذا. واخيراً تجد رجالاً ونساء يتصفون بالذكاء، ولكنهم يبددون مواهبهم لانهم لا يدربونها

ولا يروضون انفسهم على الانتفاع بها انتفاعاً صحيحا ، فهم يعنون بتجميع معلومات كثيرة متناثرة لا رابط بينها ، ولا دليل على صحتها ، ثم يبنون عليها نتائج وآراء . فأمثال هؤلاء الناس يصيرون ذوي أطوار غريبة ، او تعصب ، او هواة فلسفة ما وراء الطبيعة ، فهم ليسوا من الأغبياء ، بل لهم عقول ولكنهم يفسدونها .

بيد ان اعظم خسارة تنزل بعقول الناس ، مردّها الى المجتمع . واذا القيت نظرة على العالم وسكانه الذين يبلغون أكثر من ألفي مليون ، وذكرت ان عقول كثيرين منهم مشلولة او معطلة ، احسست بمثل الأسى الذي يساور الطبيب حين يرى اجسام معظم البشر : غذاؤها سيء وعلاج اوصابها فاسد ، وقوامها تشوهه الأزياء السخيفة في الملبس والمسكن . فهؤلاء أحياء تتحطم قواهم وتنحط عن جهل أحياناً ، وتشوه عن اذى عمد احياناً .

اما العقول فمقيدة من الناحية الاجتماعية بثلاثة قيود ، هي الفقر ، والخطأ ، والقصد العمد .

الفقر

والفقر هو طبعاً القيد الرئيسي . وقد كتب جونسون ، مجارياً جوفنال الروماني فقال :

الموهبة تتفتح في بطء متى اناخ عليها الفقر .

واكثر الناس يعيشون على مستوى يعلو قليلًا عما يكفي لحفظ الرمق ، ولا يكاد يكون في وسعهم ان يقتنوا كتباً ، او أن يأجروا معلمين ، او ان يشيّدوا مدارس . فالكليات والمعامل ودور الكتب والجامعات بعيدة كل البعد عن مناهم . والعقل يتعرض بعد كل حرب كبيرة لاكبر المخاطر ، اذ تدمّر الكتب والمدارس في خلال الحرب ، ثم يصعب بناء ما دمّر وتجديده على وجه وافٍ من السرعة ، فيشبّ الصغار وكأنهم همج . وهذا هو سبب تلاشي الحضارة في فترة تتعاقب فيها الحروب وتتوالى . فالتربية رهن بالتراث ، والنظام ، وما تزوّد به المعاهد من المعدّات ، فاذا قضيت عليها جميعاً وأزلتها خلال نصف قرن ، أصبحت البلاد مكتظة بالجهلاء ، وهذا هو أخوف ما يلقاه المرء في اوربا في مطلع عصور الظلام منذ خمسة عشر قرناً . فقد كانت الكتب كثيرة في السنة ٤٠٠ بعد الميلاد ، ولعلها كانت اكثر من الحاجة اليها يومئذٍ . فلم تنقضِ ثمانية أجيال او عشرة حتى صار الكتاب شيئاً عزيزاً ، يصان ويحرس ويجلّ ، ولا يكاد يفهمه اكثر الناس . وكان العالِم يرسل الرسائل خلال مناطق يعيث فيها قطاع الطرق ، ليسأل صديقاً له في بلد ناءٍ إنْ كان عنده كتاب ما ، وهل يتفضل فيسمح له به حتى ينسخه ثم يعيده اليه ! وقد رُوي ان القديس كولمبا الذي اوفد مرسلًا من مسيحي

ارلندا الى الاسكتلنديين ، خاصم القديس فينيان من اجل كتاب فرد ، ألّفه فينيان ونسخ كولمبا نصوصه مكبًّا عليها ليلة بعد ليلة . وقد انتهى الخصام الى قتال بين العشيرتين ، بعد ان قرر ديارميت ملك ارلندا ، أنّ النسخة تخص فينيان « كالعجل يخص أمه البقرة » . وان نظري لا يقع مرة على كتاب كتب في عصور الظلام ، بصفحاته المصنوعة من جلد البقر ، وحروفه التي افرغ الجهد في إتقانها ، دون ان اشعر بالاعجاب — بالناسخ الذي نسخه رويداً رويداً ، وبأصحاب المكتبات الذين صانوه خلال قرون من الحرب والنهب والاهمال المجرم ، ودون ان احسّ بتجدد الرجاء والثقة بمستقبل البشر . واذا ما نزلت بنا كارثة كهذه الكارثة ، فسيبذل كل منا غاية ما في الوسع لعون اخيه . فيعمد الاطباء والممرضات الذين ينجون من الكارثة الى وضع خطط بسيطة للصحة العامة والتدريب الطبي ، ويمضي رجال الدين في خدمة الله حتى بين الأنقاض ، ويبتكر المهندسون وسائل للمواصلات والنقل والخدمات العامة بما يكون بين ايديهم من ادوات يستنقذونها أو يلفقونها . امـــا المعلمون فسرعان ما يبدأون البحث في الانقاض عن الكتب ومعدات المعامل ، ثم يفتحون مدرسة .

ومع ذلك فالفقر ، حتى فقر الجماعة كلها ، ليس حاجزاً مانعاً يحول دون تربية شعب قد عزم ولا ينثني ، عن التضحية في سبيل ذلك . فالجماعةُ بأسرها قادرة ان ترفع مستواها

خلال خمسين سنة اذا تضافرت جهودها ، او هي قادرة ان تصون نفسها قروناً متوالية من عواد متوالية تثبط الهمة . ففنلندا من افقر الامم في اوربا ، ولكنها انشأت مدارس ممتازة ، وابناؤها اكثر ثقافة من ابنـــاء امم اغنى منها . واسكتلندا لم تكن ثرية في عهد ما ، ومع ذلك فقد أمّنت قيام اربع جامعات فيها منذ عهد الاحياء ، وتاريخ كل من هذه الجامعات ينطوي على قصص طلاب من ابناء الفلاحين نشأوا في فاقة سوداء ، وكدوا ان يعجزوا عن شراء الملابس الموافقة ، ولكنهم برغم ذلك شقوا طريقهم في الجامعة ، يكتفون من الطعام بقليل من الشوفان والسمك المملح يرسل اليهم من اكواخ أهلهم ، ثم نهضوا الى ذرى الامتياز علماء ومخترعين .

الخطأ

الفاقة تبعث الاسى في النفس واما الخطأ فيثير السخط . واشد حزن يبلو النفس هو ان تتبين كثرة العقول الجيدة التي افسدها الخطأ ، او التثبيط ، او سوء التوجيه في العالم قاطبة خلال قرون متوالية من التربية . وقد كان مستوى التربية في بعض الاحايين اعلى من ان يرقى اليه الطالب الوسط . فكان نصيبه الاهمال ، فافضى ذلك الى خنق مواهب كامنة . وكثيراً ما اتيحت اسباب التربية الحسنة لفئة مختارة

وتركت البقية يأكلها جهلها . ونحن نعلم ان النساء لم تفتح لهن ابواب المشاركة في ثقافة شعوبهن وثقافة العالم ، الا في عهد أناس لا يزالون على قيد الحياة بيننا . وكلّ برهمي في جنوب الهند يدخل مدرسة جيدة ، ولكن ما اعسر ان يتاح لفتى من الطبقات الدنيا هناك ان يتعلم كيف ينتفع بمواهبه ، او حتى ان يستكشف انه موهوب . وتجد احياناً ان تاريخ الامة وبنيانها الاجتماعي يجعلان التربية شيئاً نادراً او عسيراً او مقيّداً بقيود التخصص . ففي الصين مثلاً لا تجد لغة محكمة بل عدداً من اللهجات التي لا يفهم اصحاب بعضها ما يقوله اصحاب البعض الآخر ، ثم هناك لغة واحدة مكتوبة مؤلفة من صور لا تقابل احدى اللهجات ، وهي عسيرة على التعلم . ولذلك لم يكن بدّ من ان تنحصر التربية في الصين في قلة ضئيلة من الناس يستطيعون ان يستذكروا صوراً مرئية ويفكروا تفكيراً مجرداً . وتجد ايضاً في مجتمعات كثيرة ان الشعائر الخارجية للدين او الحياة الاجتماعية قد بلغت مبلغاً عظيماً من التعقيد حتى ليحتاج العقل الى ان ينفق طاقة عظيمة ليتذكر ويفصل طـــائفة من الاصوات والعلاقات العارضة والنوافل . وفي بلدان كثيرة تجد الاحداث الموهوبين ينفقون سنوات في استظهار فقرات دينية وتراتيل — احياناً كثيرة في لغات لا يعرفونها سوى معرفة ضئيلة — حتى يستطيعوا ان يتلوها عن ظهر قلب دون ان يرتكبوا اقلّ خطإ في مقاطعها ، ودون ان يحللوا معانيها او يفهموها ايضاً . ومعظم

علماء الانسان يدهشهم ما ينفقه الرجل من ابناء التبت او نفاهو ، من الطاقة العقلية في استظهار كل مرحلة من مراحل حفلة دينية معقدة ، حيث المذبّة المصنوعة من ذيل البقرة، يجب ان تضم سبع عشرة خصلة لا تنقص ولا تزيد ، والقطعة المربعة الزرقاء من القماش ينبغي ان تقابلها دائرة من اللون القرمزي ، والصندوق المقدس ينبغي ان يحتوي على خمس وثمانين خرزة لا أكثر ولا اقل . وعلى غرار ذلك ما ينفقه صياد في بلدة صغيرة قائمة على ضفة نهر ، من طاقة عقلية في تحديد علاقته بطواطم حيوانات مائية او اسماك شتى ، ثم بالجمعيات السرية التي تتغلغل في هذه النظم المعقدة ، حتى ليبدو احياناً ان الناس ينظمون حياتهم قصداً ليزيلوا منها التفكير في الاصول .

ولكن العقول تهدر ايضاً اذا تعلمت تعليماً غير وافٍ او غير مُجدٍ ، او اذا قام على تعليمها معلمون ذوو اغراض ضيقة ، او إذا روّضت في مدارس تبالغ في تساهلها او اهمالها . ونحن لا نزال نذكر تلك الصور الساخرة التي رسمها الكتاب منذ مئة سنة ، لمعلمين في المدارس ، قسمات وجوههم كالحة ، وفي أيديهم عصيّ ، يرهبون بها جماعات التلاميذ المروعين . وقد كان هذا كله جزءاً من مذهب التزمت الديني (بيوريتانزم) في مطلع القرن التاسع عشر ، ولكن الزمن عفّى عليه الآن ، سواء أكان ذلك شيئاً حسناً أم لم يكن . ولعلّ الساخر

الحديث يكون ادنى الى الحقيقة اذا عكس الصورة اليوم، وأظهر المعلم منكمشا امام جماعات تتوافد عليه كل سنة من فتيان وفتيات أجلاف، راضين عن انفسهم ولا يهمهم سوى السطحي من الامور، فاذا هو يستدرجهم بدلاً من ان يأمرهم، ثم يحاول ان يصون استقامته الفكرية وحماسته ومحبته للانسانية وعنايته بالمعرفة، بما يتمتمه لنفسه قائلا: «ربي، اغفر لهم فهم لا يعرفون ما اصنع». ان التعليم العام لا يزال تجربة جديدة في ثقافتنا المعاصرة، بيد ان إلغاءها ينذر بشؤم لا يخطئه النظر. واقبـــال الناس على التربية ليس اجماعاً، وبعضهم يقاومها طوال حياته. واذا لم تكن التربية امتيازاً يُطلب اصبحت عبئاً، والمعلمون في الجامعات الحكومية الجديدة والمدارس الالزامية، يحسون احياناً كانهم اطباء يحاولون ان يفسروا لمريض لا يريد ان يفهم، ان الطعام النقي أفضل من الطعام الفاسد، او للأمهات بانه خير للأم ان تهدهد الطفل على زجاجة من اللبن الحليب بدلاً من ان تجرعه كأساً من الكحول.

والعالم الغربي يواجه اليوم ثلاثة اخطاء تفسر الضعف الذي منيت به التربية المعاصرة في اقطاره.

اما الاول فهو الفكرة الخاطئة بأن المدارس أنشئت في المقام الاول لتدريب البنين والبنات على حسن المعاشرة الاجتماعية والاندماج في جماعتهم، مزودين بضروب من الحذق

في الحيـــاة الاجتماعية و «مروّضين على التعاون في الاسرة والجماعة» وما كان على غرار ذلك.

ومن البيّن أن هذا الغرض هو واحد وحسب من اغراض التدريس، وكثيراً ما اهمل في الماضي مع انه كان يتحقق كنتيجة ثانوية للتربية. فالمدرسة والكلية في احدث مراحل التاريخ الاميركي كان عليها ان تنهض بوظيفة مفيدة ولا غنى عنها، وهي ان تخلق للثقافة نموذجاً متسقاً الى حد ما، يأخذ به ابناء الطبقة الوسطى، وان تنشئ نظاماً اجتماعياً مستقراً ينضوي فيه ويألفه اولاد المهاجرين الذين تدفقت وفودهم على الولايات المتحدة تدفقاً منقطع النظير بين سنتي ١٨٨٠ و ١٩٢٠. ولكن للتربية غرضاً آخر يعدل ما تقدم، خطر شأن او يفوقه، وهو ان تدرب عقل الفرد تدريباً شديداً محكماً وان تحفزه وتشجعه بشتى الوسائل المتاحة، لأن أكبر شطر من حياتنا الاصيلة وافضل شطر منها نقضيه كأفراد، ولان احتفاظ كل منا باستقلاله أمر لا غنى عنه في عصر يتسع فيه نطاق ثقافة الجماهير.

واما الخطأ الثاني فهو الاعتقاد بان التربية هي عمل له حدّ ينتهي عنده، فيتوقف توقفاً كاملاً يوم يبدأ المرء مرحلة البلوغ من حياته. وقد كان لي صديق في اثناء الحرب، تابعاً لفصيلة في الجيش لم يكن فيها اميٌّ واحد، ولكن أحداً منهم لم يفتح كتاباً للمطالعة. فاشترى صاحبي روايات

— من ذوات الغلاف الورقيّ — وكُتُبَ رسائل أدبية ليطالعها في ساعات السأم الطويلة التي تعدّ شيئاً لا ينفصل عن الخدمة العسكرية . وكان إخوانه في الفصيلة يراقبونه متحيرين من أمره وهو يقلب الصفحات ويقرأ الكتاب تلو الكتاب . فلما ألقى الكتاب الخامس عشر ومد يده الى السادس عشر اقبل عليه احد خلانه وقال : « انك لا تنفكّ تدرس ، افلا تتعب ؟ » فهذا الفتى كان عاجزاً عن ان يتصور ان قراءة الكتاب قد تكون متعة لا عملاً صعباً مرهقاً . وعلى هذا الغرار كثيرون من الشباب الذين يتخرجون من المدارس والكليات في اوربا واميركا الشمالية والجنوبية واستراليا وغيرها ، فانهم لا يكادون يفعلون حتى يهملوا عنايتهم باللغات ، وينسوا ما تعلموه من العلوم (الا اذا شغلوا منصباً علمياً) وينصرفوا عن التفكير السياسي والاقتصادي ، ويعجزوا عن ان يعقدوا صلة الوصل بين التدريب الفكري الذي تلقوه خلال اربع سنين او ثمانٍ وبقية حياتهم . فكأنك تتعلم الموسيقى خلال عشر سنوات او نحوها ثم تهمل الذهاب الى حفلة موسيقية او النقر على الاوتار نغماً واحداً . والملامة في هذا تقع على المدارس والكليات والمعلمين ، لا ريب في ذلك . ان كثيرين من المعلمين (ولا سيما في الكليات) يحدّون من اهتمام تلاميذهم بما يوحونه اليهم من ان غرضهم الحقيقي الاصيل انما هو تدريب العلماء الفنيّين ، وان العناية عناية هواةٍ بموضوعاتهم هي شيء مستهجن .

اما الخطأ الثالث الذي يحدُّ من الانتفاع بالمعرفة في العالم الغربي، فهو الظن بأن التعلّم والتعليم ينبغي ان يثمرا دائماً ثمراً داني القطوف، وان يفضيا الى ربح ونجاح. نعم ان القصد من التربية هو ان تنتفع بها شخصية الطالب بكاملها، ولكن يستحيل — ولا يستحسن — ان نقيم الدليل على ان اهم المواد التي تدرّس في منهج معين من مناهج التربية كفيلة بأن تجعل المتعلّم غنياً، او صالحاً للحياة الاجتماعية، او توفر له عملاً. فالشعر افضل من كرة الطاولة، والرجل الذي لا يعرف شيئاً عن علم الحياة هو في هذا الباب اقلّ شأناً من الرجل الذي يعرف، وان كان اولهما اوفر مالاً، ودراسة الفلسفة قلما تجعل المقبلين عليها اغنياء، فهي تشبع فيهم غريزة تجأر جوعاً الى هذا الشبع، كغرائز حفظ النوع والتناسل. وإشباعها اشق. والناس الذين لا يعرفون التاريخ، ينساقون الى تعلّم أخطاء تُسمّى تاريخاً، ويعجزون عن فهم اللحظة العابرة اذ تتحول وتصير جزءاً من التاريخ. ومع ذلك نجد احياناً مشقة كبيرة في اقناع الشباب بهذا، وفي شرحه للوالدين ونظار المدارس. وعاقبة ذلك اهمال مواد دراسية مثمرة وذات شأن، واسقاطها من برامج التربية وتجاهلها وتشويشها. فآداب اللغة الانكليزية من اجود الآداب في العالم قاطبة، وهي شيء ينبغي للمرء ان يفخر به وان يستمتع. فكل من يتعلم قراءة اللغة الانكليزية وكتابتها يقبض بيده على مفتاح كنز ضخم لن يناله الفساد. وفي هذه

الآداب منذ عهد تشوسر الى عهد إليوت ذخائر تكفي لجعل المرء سعيداً، مفكراً، وفصيحاً مدى الحياة. ومع ذلك ترى ابواب هذا الكنز توصد في وجوه كثيرين من البنين والبنات الساكنين في البلاد التي اخذت باللغة الانكليزية. فالمعلمون يقولون لوالدي التلاميذ ان اللغة «اداة» وبدلاً من ان يأخذوهم بأيديهم ويبينوا لهم كيف يستطيعون ان يقرأوا ويستمتعوا بأفضل خمسين كتاباً من هذه الكتب العجيبة، تراهم يعلمونهم ما يسمونه «فنون اللغة» وهي بالقياس الى الادب كبصمات الاصابع الملوّنة بالقياس الى روائع فنّ التصوير. وعدد الفتيان والفتيات الذين يدخلون المدارس الثانوية والكليات يطّرد زيادة عاماً بعد عام. اما مستوى التعليم فيهبط رويداً رويداً عاماً بعد عام. وليس سبب ذلك لان الانحطاط أمر لا مفرّ منه متى اقبلت الجماهير على نظم التعليم، بل سببه اننا نبلغ حدود التهور في استعدادنا لتبديد قوى العقل في الشباب، وإهدار تراثِ الماضي الذي لا يقوّم بمال.

القيود

وأخيراً هناك نوع ثالث من القيود الخارجية التي تحدّ من المعرفة. وذلك هو التقييد العمد، يفرضه صاحب سلطة سواء اسياسية كانت ام اجتماعية ام كنسية. افهناك شيء يسوّغ هذا التقييد؟ واذا كان الجواب بالايجاب فمتى ولِمَ؟

والى اي حد ينبغي ان تمتد ، وكيف ينبغي ان تقيّد؟ انها مسائل عصية ، وقد دار من حولها نقاش حاد ، لانها تحرّك اهتمام الناس وتثيرهم ، وقد كتبت كتب كثيرة في موضوعي ، حتى حجبت كثرتها المبادئ التي لا بد من الرجوع اليها في كل محاولة تبذل للاجابة عنها :

اما اولا فمن الواضح انه لا بد من ان نفرض بعض القيود على حق المعرفة . فالمجتمع قائم على تقييد الحقوق تقييداً عادلاً من اجل منفعة الجماعة .

(شؤون الفرد الخاصة) فليس لاحد حق مثلاً في ان يعرف ، او ان ينشر ، تفاصيل الحياة الخاصة لمواطن آخر ما دامت هذه التفاصيل تعدّ خاصةً حقاً . وليس لاحد حقٌ في ان ينال وينشر اخباراً عن اعمال مواطن ما ، ان لم يكن لها علاقة بيّنة او اثر واضح في مصلحة امرئ آخر او في خير الجماعة . فاذا كشفتُ أنّ جاراً لي قضى منذ عشر سنوات فترة في السجن ، رزقت زوجته في خلالها بطفل من رجل آخر ، فليس من حقي على الاطلاق ان انقل هذه المعرفة الى الجمهور ، الا اذا قام دليل على ان مصلحة الجمهور تضار اذا ظلّ هذا الامر خفياً عليه . والمحامون يقولون ان جريمة القذف تكبر على قدر ما تكبر الحقيقة . ففي الحياة نواحٍ لا بد فيها من حماية الفرد من افراد آخرين ، او من فئات ، او من المجتمع نفسه . ومن البيّن ان اعظم الحقوق

شأناً هو حق المرء في ان يختار ممثلاً سياسياً يؤيد مصالحه ويصونها. ولكي نصون هذا الحق، نضحي بشيء من حق المعرفة، ونسنّ قانوناً بأنّ اقتراع المواطن ينبغي ان يكون سرياً.

(الشؤون الخاصة للجماعة) وكذلك كل جماعة لها الحق في ان تحمي نفسها، على ان يكون لوجودها اساس من حق شرعي وادبي. فلذلك تستطيع ان تحظر على الناس ان ينتفعوا انتفاعاً حراً بمعرفة قد يكون في اذاعتها إضرار بها. وكل عمل تجاري ومالي له اسرار ابتاعها صاحبه او كشفها، فليس من حق الجمهور ان يطلع على هذه الاسرار، الا اذا اقتضت ذلك مصلحة الجماعة كلها، ومتى اقتضته. وذلك لان الجماعة انما تقوم من اجل الافراد، وفئات من الافراد، وليس العكس صحيحاً. (طبعاً نشأت جماعات كثيرة حاولت ان تلغي حياة الفرد إلغاء تاماً، وان تجعل كل عمل وكلمة وفكر شيئاً مباحاً ويجوز تداوله ونقله. ولكنها كانت جماعات صغيرة، عابرة، متخصصة، او منحطة انحطاطاً روحياً وعقلياً) اما الجماعات الكثيرة المنظمة، كالكنائس والاحزاب او الشعوب، فتعمد فعلا الى صيانة اسرارها، والكثرة من الناس تذهب الى ان الانسانية عامة لا حق لها في معرفة تلك الاسرار -- الا اذا اقتضاها خير الجماعة ومتى اقتضاها. فالكنيسة الكاثوليكية لا ترى ان للجمهور حقاً في ان يعرف

مصادر دخلها ومقداره، او اين تثمّر اموالها وفيم تثمّرها. والشعب السويسري هو شعب مسالم، شديد الاعجاب بتقدم العلم، ومع ذلك فلن تجد سوى سويسري مغفّل او خائن يطالب بأن يذاع مكان كل لغم او مدفع في نظام الدفاع السويسري، وان كان في اذاعته يدٌ تُسْدى الى تقدم العلوم الحربية. وكذلك تملك كل امة اسراراً حيوية، لا يسعها ان تبيحها للعالم كله، دون ان تعرّض كيانها المستقل للخطر، بمساعدة اعدائها او من قد يصير في عداد اعدائها. وليس ثمة ريب في انه متى قام السلام العالمي على اركان راسية، تصبح شعوب الارض وحكوماتها غير حريصة عـــلى اخفاء اسرارها بعضها عن البعض الآخر، ولكن هذا لا يعني مطلقاً ان نشر الاسرار القومية في هذه المرحلة من مراحل التاريخ، يمهّد لارساء السلام العالمي، وبخاصة لان الحروب التي نشبت في العهد الحديث والتي قد تنشب في المستقبل المنظور، لم تكن نتيجة جهل بالحقائق، بل نتيجة توتر انفعالي، ومطامح جامحة، وبغضاء متأصلة وعقائد يشن اصحابها حرب جهاد ليفرضوها على غيرهم. ولن يكون في وسع احد ان يجمع من الوثائق ما يجنّب الالمان الى البولنديين، او يفضي الى تعزيز ثقة العرب باليهود، وكل محاولة تبذل لحل مشكلات من هذا القبيل بنشر المعرفة هي مضيعة للجهد.

(الرقابة) اهناك قيود لا بد من فرضها على المعرفة في

مجتمع بعينه ؟ يلوح ان الجواب هو بالايجاب ، اخذاً بما يفعله كل مجتمع بشري . فالمجتمع ليس هيئة متّسقة من الافراد ، وفي كل شعب رجال ونساء يخرجون على المجتمع ويأبون التعاون مع سائر افراده ، وغير قليل من الناس متهوّر وخطر على المجتمع وعلى نفسه ، في بعض مراحل حياته . واذن فقيود المعرفة تفرَض لكي يحمي المجتمع نفسه من الخارجين عليه والذين لا يقدرون تبعة ما يفعلون .

خذ ابسط مثل في هذا الباب : أمن الحكمة ان تذيع على الشعب كله وصفاً دقيقاً للاساليب التي تستعمل في صنع سموم بسيطة التركيب ولكنها مميتة ، او متفجرات مدمّرة ولكنها رخيصة ؟ طبعاً ، لا . كل باحث مجتهد يستطيع ان يستكشف الحقائق التي يطلبها بمراجعة الكتب في دار عامة للكتب . وليس في معظم البلاد قانون صريح يمنع نشر كتاب مختصر او دليل يحتوي على هذه الحقائق . ولكن المجتمع يثبط بوسائله الفعالة نشر مثل هذا الكتاب ، ويبتكر الوسائل لحصر هذه المعرفة في الفنيين الذين يحملون تبعة ما يفعلون ، ولهم قصد مشروع في استعمال السموم او المتفجرات . وعلى غرار ذلك لا تجد حائلاً قانونياً في كثير من البلاد يحظر على ناشرٍ ما ان يسعى الى كسب المال بنشر كتيب يحتوي على ايسر الوسائل واسلمها لاحداث الاجهاض ، ومعرفة هذه الوسائل تتداولها الالسن في بعض الجماعات ، ولكنها لا تنشر نشراً حراً ولا يجوز ان تنشر .

ولكن المسألة تغدو اشد تعقداً وأشقّ إذا ما سألنا انفسنا كيف نسيطر على الناس المتهوّرين قبل ان يرتكبوا حماقات ضد المجتمع ، بفرض قيود او حدود على المعرفة التي تتاح لهم . وقد كانت هذه المسألة موضوع بحث ونقاش طويلين صريحين في الولايات المتحدة وغيرها ، خلال الاجيال القليلة الاخيرة ، ولم تحلّ حتى الآن . فثمة رجال ونساء ذوو فطنة وذكاء تراهم يقفون على طرفي نقيض حيالها ؛ فبعضهم يخشى الرقابة اشد الخشية ، مهما يكن القالب الذي تفرغ فيه . وغيرهم يرى ان خطر افساد اخلاق الناس ، وتحطيم حياتهم هو خطر اعظم ، وهم يعتقدون ان الكتب الفاسدة هي سبب ذلك . ومن البيّن اننا لن نصل الى اتفاق ، وشأن الخلاف في ذلك كشأنه بين محبذي الحكم بالاعدام ومخالفيه ، او مؤيدي إجراء التجارب الطبية على الحيوانات ومعارضيه . ولذلك ليس في طاقتنا ان نتقدم بحل يرضي جميع الفئات ، وجلّ ما يمكن هو ان نستوضح بعض المسائل المهمة .

والواقع ان معظم البلدان المتحضرة تمارس رقابة دقيقة على انواع معيّنة من المنشورات ، سواء اكان الناس يرون رأياً مدروساً في موضوع الرقابة أم لم يروا . والواقع ايضاً ان معظم معارضي الرقابة لا يؤمنون باطلاق حرية القول بغير تمييز على الاطلاق ، او بنشر جميع الوان المعرفة ، بغير استثناء . (من اغرب ما يعرض للمرء ان يستمع الى

ناشرٍ يعرب عن استنكاره المرّ للقيود التي يفرضها القانون ، او احدى الجماعات ، ثم ان يقول في نَفَسٍ واحد : عرض عليّ في السنة الماضية خمسة كتب او ستة أبَيت ان أمسّها) .

اما ميادين الرقابة التي يتفق فيها النظر والعمل ، فهي الميادين التي تتحوّل فيها المعرفة الى انفعال ، وحيث الاطلاع على الحقائق يجعل المتهورين عاجزين عن ضبط النفس والامتناع عن الاعمال الخطرة او المؤذية . والكثرة من الناس ليست خارجة على المجتمع ، وترى ان جانب الخسارة في الخروج عليه ، اكبر من جانب الربح فيردعهم عن الخروج عليه ، التفكير في عقار أو عملٍ ، او في زواجهم واولادهم ، او في المرض والشيخوخة ، او في الخوف من العار . ولكن كثيرين من الشبان والشابات بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر ، وبعض الفئات والافراد فوق الخامسة والعشرين ، يكونون ثوّاراً الى حين او دائمـــاً . فاستدراجهم وإقناعهم بالانتفاع بمواهبهم من اجل خيرهم وخيرنا ، يقتضينا ان نهدئ من ثائرتهم وان نحوّل وجوه نشاطهم الى مجار لا تؤذي ، مشيدين باتباع النظام والتخفيف من حدّة الحماسة التي تضر ، وهذه الحماسة تكون اخطر ما تكون في ثلاث نواح : الجنس ، والعنف ، والسكر . ولذلك تقضي الحكمة بوجه عام ، بالحد من نشر المعرفة عن هذه الموضوعات نشراً مطلقاً من كل قيد . واليك الامثلة الثلاثة التالية :

يسيرٌ ان تنشر كتاباً عن ملاذّ تعاطي المخدرات ، فالشمل بالمخدرات له ملاذه ، وبعضها هو النجاة المهيّنة من واقع العالم (كما يقع لمدمني الافيون ، والذين يمضغون الكوكا ، او يدخنون الماريجوانا وهو اخف اثراً) . وهناك عدا المخدرات ما هو اشد اثراً واخطر عاقبة ، ولا يقبل عليه سوى المقاديم . ثم ان الانتماء الى جماعة من ذوي الجرأة يستهوي الشباب . وكتاب من هذا القبيل لن يكون بالضرورة تأملًا فيما لتعاطي المخدرات من نواح تمتُّ الى الروح او الجمال بصلة ، ككتاب بودلير او ده كونسي ، بل يصف الشعور الحسي وصفاً مفصلًا ، ونشوة كل نوعٍ ويبسط اجدى الاساليب في تعاطيها . وهذا كله يدخل في باب المعرفة ، افنجيز نشره نشراً مطلقاً من كل قيد ؟

اما القسوة والعنف فأبعث على حماسة اشد في بعض الناس وفي بعض الاماكن . وثمة وسائل كثيرة بارعة لإنزال الالم بالناس او بالحيوانات ، وقد صنع هوغارث صوراً بالخطوط الدقيقة جعل عنوانها « اطراد القسوة » وهي تبين مدى الرضى الذي يسبغه إلحاق القسوة بالغير ، على اصحاب النفوس الانانية الفاسدة التي لم يكتمل نضجها . فاذا وصفت بعض اعمال التعذيب والقسوة الوحشية من وجهة نظر المعذّب ، اضفت بوصفك شيئاً الى المعرفة . ويقابل ذلك ان ملايين من الناس قد عذّبوا في عصرنا او هددوا بأعمال قسوة يقشعر لها الجسم . وفي الوسع تصنيف مجلدات تحتوي على ما حدث ، وتوزيعها

على ضحايا التعذيب واقاربهم او الذين لا يزالون يخشون قسوة من هذا القبيل. ففي اثناء القتال الذي نشب منذ عهد قريب بين السيخ والهنود والمسلمين، ارتكبت فظائع كثيرة. افينبغي ان تنشر في الهند والباكستان مجموعات من الصور تبين ما تم ومعها وصف مفصّل لكل من هذه الفظائع على حدة؟ افيكون الرجل الذي ينشر مجلدات كهذه المجلدات، على انها اضافة الى المعرفة، صديقاً محباً للانسانية او عدوًّا لها؟ وهل يقضي عمل الناشر الذي ينشر كتباً عن ألوان التعذيب، والصور الحية التي تشتمل عليها، والوثائق التي لم تنشر من قبل، الى مساعدة اخوانه في الانسانية او الى الاضرار بهم؟

اما الحياة الجنسية ففيها ألوان كثيرة من الانحراف عن الطبيعي المألوف. واكثر الناس يلقون اعظم سعادة مقيمة في صلات جنسية سوية، استعدوا لها في فترة المراهقة من حياتهم، وتمتد خلال زواجهم الى محبة اولادهم. ولكن الناس يغريهم في عهد الصبا ان يعملوا اعمالاً وان يربوا عادات، اجمع الناس على انها حمقاء وتحقر الذات. ومن الاغراض التي يتوخاهـــا التدريب في الجماعة او الاسرة او الكنيسة او المدرسة او الكلية او المجتمع بوجه عام، مساعدة الشباب على ان يتخطوا هذه المرحلة دون ان يصابوا باضطراب نفسي، خلالها، او بالندامة والشقاء فيما بعد. واذن فكل

كتاب يصف وصفاً مفصلاً الآثار المثيرة للاوضاع الجنسية المنحرفة هو كتاب ينطوي على خطر للمجتمع ، وان وُصف حقاً بأنّ فيه إضافة الى المعرفة . يحسن بالطبيب النفسي ان يقرأه ليفهم مرضاه ، وبالقاضي أو الكاهن ايضاً ، اذ يجد فيه معواناً على الحكم بالعدل واسباغ الرحمة . ولكن لا يجوز ان يقرأه الشباب الذين « يغلي الدم في عروقهم » ، واما الذين بدأوا ينحرفون عن طريق السعادة فينبغي ان يحال بينهم وبينه وقاية لهم .

ان الكثرة الغالبة من الرأي العام في البلاد المتحضرة موافقة ضمناً او صراحة ، على فرض حدود للنشر الحرّ في هذه النواحي الثلاث على الاقل . وكلما ابتكرت وسيلة جديدة للتخاطب بين الناس ، فرضت هذه الحدود عليها حالاً او تكاد .

بعيد اختراع الصور المتحركة تمّ الاتفاق على الحد من عرض افلام تبين بعض اساليب القتل والتعذيب والسكر وتعاطي المخدرات والغريزة الجنسية وغيرها من الانواع المتطرفة في تجارب الانسان — وان كان في الوسع وصفها حقاً بأنها مطابقة للحقيقة ، او ان فيها اضافة الى المعرفة . فلما ظهرت اساليب الاذاعة والتلفزة طبقت عليها هذه الحدود . ويذهب بعضهم الى ان هذا الحد اشدُّ واضيق مما ينبغي ، ولكن قلما تجد احداً ينكر المبدأ ، وان بعض التقييد امر ضروري .

وقلما تجد احداً يقدم على صنع فلم لمأدبة تؤكل فيها لحوم البشر مهما يكن مطابقاً لحقيقة الواقع ، ثم يوزعه بغير قيد على المسارح العامة ، او من يقدم على عرض برنامج متلفز يشمل الامة بكاملها ، ويمثّل فيه المآدب المشهورة عن مركيز ده ساد والتي كانت آيتها ألواناً شتى من التعذيب . ففي نواح قليلة ولكن خطيرة من نواحي الحياة ، يتحوّل الوصف في يسر وسهولة الى اقناع . والحماسة التي يثيرها الاطلاع على بعض ألوان التجربة سرعان ما تحرّك العواطف تحريكاً قوياً يفضي الى انقلاب في الشخصية ، ان لم تكن قد اعدت إعداداً وافياً لمقاومة هذا الاغراء عن طريق التربية الفكرية والخلقية . وقد وصف القديس اوغسطينوس صديقاً له ذهب على رغم منه الى اكبر المهرجانات الرومانية — حفلات الالعاب . فأغمض الشاب عينيه حتى لا يرى المتقاتلين يذبح بعضهم بعضاً ، او السيوف تلمع والدم يسيل من الجراح ، والجرحى يقعون الى الارض ، ثم مشهد ظفر الظافر ، واللحظة الاخيرة عندما يغمد النصل في اللحم الحيّ . ولكنه سمع صيحة الحماسة ترتفع من حناجر الجماهير حوله ، وفتح عينيه واذا هو في لمحة عابرة يستمتع بمشهد الدم والوحشية ، ويصيح من فرح عندما يرى القتل التالي . وقد كتبت كتب كثيرة في وصف مثل هذا الاثر في نفوس النـــاس . ومن السهل ان تؤلّف كتب اخرى وبخاصة في عصر كعصرنا ، حيث الانفعالات في نواح كثيرة من الحياة تغلب العقل ، وحيث نجد ألواناً شتى من الجنون

تطرّد انتشاراً ، وليس بغريب ان يقدم بعض من طبعوا على الشر او الجشع او الاضطراب النفسي على تأليف كتب كهذه الكتب ، وان يوزعوها مستهدفين اغراضاً لا صلة لها البتة بنشر المعرفة .

وقد سبق وقلنا اننا لا نعرف حلًا عاماً لهذه المشكلة ، على الاطلاق . وعندما نبحث في وسائل السيطرة على الخطر والبذيء من الكتب والمجلات والافلام والمسرحيات والمعارض نلفي انفسنا عاجزين عن وضع خطة يوافق عليها جميع الناس . بيد ان المواطنين في الولايات المتحدة وغيرهـــا من البلاد الحرّة مجمعون على مبدإ واحد — وهو تعذّر اللجوء الى مبدإ عام . وقد جاء في التعديل الاول للدستور الاميركي ، سنة ١٧٩١ نص واضح كعين الشمس : « لن يضع الكونغرس قانوناً يحدّ من حرية القول او الصحافة » .

وهذا لا يعني ان مؤسسي هذه الامة ، الذين وضعوه ، كانوا يثقون ثقة لا حد لها باستقامة جميع الكتاب والناشرين وصدق حكمهم ، ولا هو يعني انهم نسوا ان اساءة استعمال حرية الصحافة شيء ميسّر ، ويعود على مجترحها بالربح الماديّ ، فقد كانوا يدركون هذه الاخطار . ولكنهم احسوا بأن سنّ قانون واحد يعين القواعد المتبعة لن يفي بالغرض فتركوا الامر للمجتمع يطبق العقوبات معدّلا نصوصها حيناً بعد حين ، حسبما تقتضي الحكمة والمصلحة . وليس ثمة ريب في انهم ادركوا

ان الجمهورية سوف تنمو ، وتصير جماعة كبيرة منوعة العناصر ، وان فئات مختلفة ، تتباين مقامـــاً وتجربة ، سوف تختلف آراؤها ايضاً . ولعل شيئاً تنفر منه فئة ما ، تعدّه الاخرى شيئاً لا غرابة فيه ولا اذى ، واذن فكل منع شامل خليق بأن يسقط من حسابه آراء وانفعالات مقبولة عن بعض فئات للشعب ولهم حق في الحرص عليها . وكانوا يعلمون ايضاً ان الواجب الواقع على كاهل الامة كلها هو ان تربي نفسها تربية خلقية وعقلية ، حتى تستطيع ان تنهض بتبعات نموها ونضجها .

وهذا هو الذي حصل . وما هو حاصل الآن . فليس من حقي انا وحقك انت او حق اي فرد او جماعة ان تفرض على اي مجتمع ، ما ينبغي له ان يأخذ وان يدع . ان الواجب يقتضي كل مواطن ان يفكر فيما يجب قبوله او رفضه ، وان يزن بميزانه عواقب القبول والرفض ، ثم ان يتخذ قراره وان يعلنه . ومن المستبعد ان تجد جميع الناس يستمسكون بأن كل شيء ينبغي ان يطبع او يعرض ، وكل من يذهب هذا المذهب يلقى معارضة قوية من الجانب الاكبر من الرأي العام . ومن المستبعد ان تجد جميع الناس يعلنون انه ينبغي للمجتمع ألاّ يكون له موازين يزن بها الامور ، للتمييز بين القسوة والرحمة ، او الدعارة والطهارة ، او المرض الخلقي والصحة الخلقية . والواقع انك تجد هذه الموازين في كل مجتمع ، وليس ثمة ما يحظر عليه ان يطبقها على الكتب ،

او غيرها من نواحي الحياة العامة . وهذا لا يعني انه فرض على الامة ان تنشئ مجلساً رسمياً يتولى الرقابة ، فمجلس كهذا خليق ان يكون آية قوة وآية ضعف في آن . ولكنه يعني ان لكل مواطن الحق في ان يكون رقيباً على نفسه وعلى اسرته ، وعلى جماعته ايضاً ، بالقدر الذي يستطيع ان يقنعها بأن ما يقوله هو صواب وحكمة . يحق له ، بل يجب عليه ، ان يحتج على الكتب والمعارض المشبوهة ، كما يحتج على تلويث الهواء والماء والطعام ، او على الذين يعكرون عليه راحته . اما كيف يسعه ان يجعل احتجاجه مجدياً — فذلك أمر مردُّه اليه ، فمن المستحيل وضع مبدإ عـــام . وواجبه العام يقتضيه ايضاً ان يكون احتجاجه قائماً على الحقائق ، سليماً من النـــاحية الاخلاقية ، ونافعاً للجماعة في اوسع معانيها .

العجلة من الشيطان ، والعجلة في امور الاخلاق ، كأمور الطب والتربية ، يغلب ان تقوم على خطإ ، والغرض الامثل هو الحرص على حفظ توازن سليم ، وتوسيع نطاقه ، ولن يتم ذلك الا بعد ان يفكر المرء في الموضوع تفكيراً طويلاً قادراً جميع عواقبه ، وهذا التفكير هو واجب واقع على عواتقنا . والمجتمع الذي يضع حداً بيّناً بين الخير والشر أخلق ان يحيي حياة اطول واسلم من مجتمع يعتقد أن الفرق بينهما ليس بشيء ذي بال ، أو من مجتمع يرى انه لما

كان حل بعض المشكلات في زمن قصير شيئاً مستعصياً، فمن العبث ان يكلف نفسه مؤونة التفكير فيها على الاطلاق. وإحدى هذه المشكلات هي مشكلة الرقابة. وهي تتغيّر لأن أخلاق المجتمع تتغيّر، ومع ذلك فللأخلاق أساس دائم لا يتغيّر. فتقرير الأشياء التي لها قيمة ثابتة، وإفساح المجال للتغيّر الطارىء والعابر، هو لبُّ الصعوبة فيما يقبل ويرفض من الكتب والآراء. إنها لمشكلة صعبة، ولن تكون ميسّرة، ولكنها لن تستعصي إذا عمدنا الى عقولنا فاستعملناها.

إيمان الجامعات

في نطاق هذه النواحي الخاصة نجد اتفاقاً يكاد يكون عاما، في جميع البلاد المتحضرة، على أن الضرورة تقضي بفرض قيود على نشر المعرفة. فإذا خرجنا من هذا النطاق حمي وطيس الخلاف. ففي بعض الشعوب نجد تقييد المعرفة شيئاً ينال الاعجاب القوي ويطبّق، أما في الشعوب الاخرى فتراه يطبّق برغم معارضة قوية، في بعضها، ويقاوم مقاومة صاخبة في بعض آخر. وفي داخل كل مجتمع تجد فئات توافق عليه وأخرى تعترض. وكل ما نستطيع أن نقوله هنا هو أن نؤكد الايمان الذي استمسكت به الجامعات الغربية خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة.

إيمان الجامعات الغربية قائم على ان لكل مواطن مسؤول حقاً مطلقاً لا يجوز نزعه منه ، في أن يحصل على معرفة الحقائق المثبتة في أي موضوع من الموضوعات التي يقبل عليها العقل – خارج نطاق النواحي التي تقدم ذكرها – وأن يحتفظ بها وأن ينشرها .

وهذا الإيمان يقوم على ثلاثة مبادىء ، احدها موضع نزاع ، والآخران ثابتان ولا خلاف عليهما . وهي أولاً : أن ازدياد المعرفة خير . ثانياً : أن قوى العقل عظيمة واسعة النطاق وينبغي أن تتاح لها فرصة نمو أتمّ . وثالثاً : ان اطراد نموّ المعرفة يخدم خير مصالح الشعب والعالم قاطبة . ومن اليسير أن يخلط المرء بين المبدأين الأوّل والثالث ولكنهما ليسا بمبدإ واحد . فمن الخير أن نزداد معرفة بالكون ، وبأنفسنا ، وان لم نجن نحن او سوانا ، منفعة اخرى غير المعرفة . فالمعرفة خير من الجهل ، وان لم تفض هذه المعرفة الى نتائج اخرى . والرجل الذي ينفذ الى معرفة نظام كوكبة من الكوكبات النجمية النائية ، او يكشف معادلةً تصف نموّ ورقة خضراء ، أو يجلو فترة مجهولة من التاريخ ، ليس بحاجة الى مسوّغ يسوغ به عمله ، فحسبه ما كشف ، ومن الجائز ألاّ ينتهي عمله الى الانتفاع به ، ومع ذلك يبقى خيراً . وبعض المستكشفات التي أسفرت عنها البحوث العلمية الحديثة قد طبقت تطبيقاً يفضي الى الشر في نظر فئة كبيرة من الحكماء ، ومع ذلك تبقى هذه المستكشفات خيراً في حد ذاتها .

ولكن المبدأ الثالث هو المبدأ الذي يكثر فيه اختلاف الرأي ، ويُشكّ في صحته ، وبخاصة خارج جماعة المعلمين والعلماء والطلاب ، ولذلك كان مثار جدل خطير خلال قرون .

وقد شهدت العصور ، ماضيها وحاضرها ، فئات من الرجال والنساء ، يعتنون أن بعض ما دخل في نطاق المعرفة ، ينبغي أن يدمّر ، أو ان تفرض عليه قيود شديدة حتى يصبح من الأسرار . وليس الباعث على هذا الرأي عندهم ان الحقائق مدخولة او خاطئة ، ولا لانها خليقة ان تفضي بالعقول المتهافتة الى سلوك مناف للاخلاق ، ولكن لانه اذا ذاعت كان في ذيوعها اذى لجماعة خاصة من الناس ، او هيئة ما من الهيئات السياسية او الدينية او الاجتماعية . وثمة امثلة كثيرة على ذلك في جميع ارجاء الارض ، وهي تتزايد كل يوم .

ففي القرن التاسع عشر حاول الروس ان يقضوا على اللغة البولندية وآدابها ، فحظروا تعليمها ، وامروا بأن تلقى جميع المحاضرات في جامعة فرسوفيا باللغة الروسية . ومنذ عهد اقرب صدر الامر ، في ظل الحكم الالماني ، بتدمير دور الكتب البولندية او وضعها تحت رقابة الشرطة . اما الاسبان الذين غزوا المكسيك فقد دمّروا جميع الوثائق التاريخية — تقريباً — التي جمعها اهل البلاد . ولما اعلن غليليو ، خلال دراسته لمكشوفات كوبرنيكوس ، ان الارض ليست المركز الثابت للكون ، وانما هي كوكب سيّار يدور حول الشمس ،

اعتقل وسجن وهدّد بالتعذيب وحكم عليه بان يسحب قوله وهو جاث على ركبتيه. وقد رُوي انه تمتم: «ومع ذلك فهي تدور». وحتى اذا سلمنا بأنه لم يتمتم بهـــذه العبارة فليس ثمة ريب في انه قالها في ذات نفسه، في حنايا عقله الرياضي. وفي العصور الحديثة، غيّر التاريخ تغييراً كبيراً من اجل اغراض سياسية. فبعد ان نال ستالين الظفر في صراعه مع تروتسكي، أغفل ما فعله تروتسكي في انشاء الجيش الاحمر، من كتب التاريخ الشيوعية، ثم طاف طائف النسيان باسمه في الاتحاد السوفييتي. وقد امتد هذا التشويه الى تفاصيل دقيقة. مثال ذلك ان ابرع لاعبي الشطرنج كان رجلاً روسياً يدعى اليخين، ولكنه تنكّر للثورة البلشفية، فلذلك لا تجد له ذكراً في ما كتب عن تاريخ الشطرنج باللغة الروسية.

ان الاعمال التي من هذا القبيل، تنبعث من غريزة بشرية عريقة. فرجل الكهف الذي رسم على جدار الكهف صور آيل يعدو، ثم رسم صورة رمح مغمد فيه، لم يكن يتذكر شيئاً وقع بل كان يدفع شيئاً الى الحدوث. وعلى غراره الملك المصري الذي امر بان تمحى عن صفائح التماثيل، اسماء سلفه العظيم وألقابه، وان تحفر مكانها اسماؤه هو وألقابه.

واذا اتيح للدولة الكلية القدرة، التي يضع لها الخطط فئة معيّنة من رجال السياسة، ان تقبض على عنان السلطان

على الجنس البشري كله ، فيومئذ يكون مسلك «مدير الاعتقاد والدعاية» فيها غير مختلف عما تقدم . ولا يكاد ينتهي نضال ما من اجل السلطان داخل الفئة الحاكمة ، حتى يعمد هو او من يخلفه ، الى تدمير تاريخ الفترة السابقة بجميع وثائقه ، وتزوير وثائق جديدة ، وكذلك ينم له خلق المستقبل بصنع الماضي على مثـــال جديد . وغرض الاعمال التي على هذا الغرار ، هو إثبات سلطان فئة بعينها سواء احزباً كانت ام طبقة ام كنيسة ام اسرة مالكة .

هنا مدار النزاع . ان كثيرين من الناس — ولعل الكثرة في العالم كله — يؤثرون ان يرفعوا من شأن سلطة النظم الاجتماعية والدينية التي ينتمون اليها على توكيد اولوية المعرفة . ولن تجد بين مئات الكليات والجامعات في ارجاء العالم سوى قلة منها وقفت نفسها على البحث عن المعرفة ونشرها وجعلت ذلك اهم أغراضها . واما البقية فمنصرفة الى تأييد سلطة ما — تربية الشباب على مذاهب البروتستانت ، او الكاثوليك ، او الاسلام ، او الشيوعية ، او اي مذهب آخر غالب في منطقتها . ولكن المعرفة الجديدة المنسقة وتيارها المخصب لم ينبثقا الا من الطائفة الاولى من الجامعات : من برلين وفينا واكسفورد وكمبردج وغلاسغو ولندن وهارفرد ويايل وكولمبيا . فهذه الجامعات وقليل غيرها على غرارها هي منازل الاعلام الذين نالوا جوائز نوبل ، والمعاهد التي وضعت فيها مؤلفات التاريخ

العظيمة المحتذاة ، وكتب المراجع ، هي مراكز المعرفة التي تشبه الماس في انها وحدها تستطيع ان تمتحن نفسها . وفي الوسع تلخيص عقيدة جامعة من هذا القبيل تلخيصاً بسيطاً جريئاً ، وهو ان جميع المنظمات البشرية إلى زوال ولكن المعرفة تبقى . فالتعليم الذي من غرضه ان يؤيد حكومة ملكية دستورية هنا ، او ديكتاتورية حزب هناك ، او سلطة كتاب ، او الاصل الالهي لشعب ما ، هنالك — قد يجدي بعض الجدوى ، في مكان او زمان بعينه . اما ان تتحرى الحقائق العالمية وان تعلّمها فهو خدمة تسدى الآن وفي المستقبل الى الجنس البشري قاطبة .

وانت تجد في فصل من اشرف الفصول في المهزلة الالهية لدانتي رمزاً رائعاً لهذا الفارق . فدانتي يصل في اثناء تجواله في الجحيم الى منطقة مخوفة ، تسكنها ارواح قد تحولت الى شعاليل حية . فهؤلاء هم مستشارو الشر . واذا احدهم يتكلم ، ورأس الشعلول يتراقص كأنه لسان ، فيكشف عن نفسه ، فإذا هو روح الامير الاغريقي عولس الرائد والبطل الحكيم . فهو يروي كيف لقي حتفه . فقد ظل عولس بعد نهاية حرب طروادة عاجزاً عن الاستقرار خلال سنين ، لان شهوته « الى الظفر بخبرة العالم ومعرفة مفاسد الناس وحسناتهم » كانت لا تزال غالبة عليه . فجمع بحارة سفينته واقلعوا « ليبحروا الى ما وراء مغرب الشمس ومسابح النجوم الغربية »

مستكشفين المحيط الغامض الذي يُعرَف اليوم باسم المحيط الاطلسي ، وضاربين في مغامرتهم وراء حدود العالم المعروف . وهناك ، في غمرة المياه المترامية القاحلة الكالحة ، ثارت عاصفة فضربت سفينتهم ، ثم ابتلعتها اللجة . فكان ذلك قصاصاً أنزله الله بهم عقاباً لهم على وقاحتهم في التطلع الى آفاق قضى بأن تبقى محجوبة عن اعين البشر . هـــذا ما يقوله دانتي ناطقاً بلسان عقلٍ عاش صاحبه في القرون الوسطى . ولكن دانتي مفكر عالمي ايضاً فلذلك ادرك ما في فطرة الانسان من توق الى الفهم والمعرفة توقا لا يشبع ، ولذلك وضع على لسان نفس الامير المعذّبة في الجحيم ، بياناً من انبل ما جرى على لسان . فقد جعل عولس يقول لبحارته ، اذ انكمشوا خوفاً من المجهول :

تبصروا في البذرة التي نشأتم منها ،
فإنكم لم تنشأوا لتحيوا كسائر الحيوانات
ولكن لتسعوا وراء الفضيلة والمعرفة .

فهنا في عبارة واحدة يتجلى إيمان الجامعات الغربية .

الايمان والعمل به

ومع ذلك تجد هذا الايمان ، كغيره ، يطبق احياناً كثيرة تطبيقاً غير حكيم ، وتشوهه احكام عامة تطلق بغير حذر .

وقد كان عرضة في العصر الحديث لضرب جديد من عبادة الاصنام غزا ملكه ، هو : عبـــادة العلم — من حيث هو سلطان جديد يحل محل سلطان الملوك والكنائس ويكاد يطلق عبّادهُ من واجب الفكر المستقل ، لا من حيث هو اسلوب من اساليب البحث . ثم ان فئة من المعلمين والمستكشفين المتحمسين وسعوا نطاقه حتى شمل مـــا لا يخصه ، وافسده بعضهم بمنطق سقيم . فمن المألوف في المدارس الشيوعية ان يقال ان العلم قد اقام الدليل على ان الله غير موجود . وهو توكيد يبلغ في سخفه سخف من يقول ان علم الجبر يستطيع ان يقيم دليلًا على روعة الغروب ، او ان علم الكيمياء يستطيع ان يقيم الدليـل على نقاء الحافز الذي يحفز المرء الى عمل ما . والبلاد غير الشيوعية تقع في اخطاء على غرار هذا ، فينبغي ان نتبينها وان نتجنبها .

وينبغي ايضاً ان نميّز الفوارق بين الحقيقة النظرية والتعليل او التفسير والفرض . وعمل كل باحث علمي يشمل ناحيتين ، إحداهما الكشف عن الحقائق ، والثانية وضع صورة عقلية او نظرية تفسر الحقـائق مجتمعة مع حقائق اخرى معروفة . فالواجب يقتضي العالم والذين يأخذون بقوله ، ان يميزوا بين الناحيتين ، وعليهم ان يقبلوا الحقائق التي قام دليل على صحتها ، وان يدركوا ان كل تفسير انما هو تفسير لا يدوم . فالخبراء النازيون الذين اعلنوا ان « العلم » اثبت تفوق بعض السلالات

على غيرها كانوا يقولون كلاماً غير علمي ، وكل من يؤكد ان نظرية دارون في الانتخاب الطبيعي هي تفسير واقعي كامل لا يأتيه الباطل ، لاصل الجنس البشري وغيره من الانواع ، يجاريهم في الخطإ . فالتفسير هو غير الحقائق ، وعبارة « نظرية علمية » قد تنطوي احياناً تناقضاً بين لفظيها .

ثم ان الحقائق ليست احكاماً على قيمة الاشياء . واذن فعلى العالم الذي يكشف الحقائق ويعلمها لتلاميذه ان يقدّم الحذر ، ويحجم عن الظن بأن الحقائق تسبغ عليه الحق في ان يفرض عليهم موازين خـــاصة للخير والشر . فحق المرء في الظفر بالمعرفة هو غير حقه في الاقناع . والمؤرخ الذي يفسر التطور التاريخي المعقد الذي جعل الشعب الاميركي او الالماني او الاسباني او البريطاني او غيرها هو ما هو الآن ، يعمل عمل العالم ، ولكنه لا يكاد يضيف الى عمله هذا قوله بأن هذا التطور هو الذي جعل احد هذه الشعوب « أعظم شعب في التاريخ » حتى يطلق حكما ينطوي على تقدير قيمة . ولا ينكر ان جانباً من مهمة العلماء في بعض الموضوعات ينصرف الى تعليم الناس ان يصدروا احكاماً سليمة في تقدير القيم ، وان يقدّموا بين ايديهم امثلة عليها لدراستها . ولن يدخل في تصور احد ان يدرّس آداب اللغة الانكليزية على وجه يساوي بين مسرحيات شكسبير ونويل كوارد . ومهمة الاستاذ ان يبسط الحقائق عن الفئتين ثم ان يدمج الحقائق في رأي

يؤيد تأييداً قوياً ما اجمع عليه العلماء من ان مسرحيات شكسبير افضل. ولكن اذا رأت طائفة من التلاميذ، بعد الاطلاع على الحقائق، ان تؤثر مسرحيات كوارد على مسرحيات شكسبير، فليس في يده حيلة، فقد نهض بكل الواجب الملقى على عاتقه. ووراء كل خلاف خطير في عالم العلم تجد خلافاً على حكم في قيمة. فإذا ما بلغ الخلاف هذه النقطة، احنى العلم رأسه ولزم الصمت. ولن تسمع بعد ذلك سوى صوت واحد، هو صوت الفلسفة، فالعقل يتكلم به، وكل ما عداه صيحة عاطفية. اما العاطفة فخاصة بصاحبها، وهي عابرة لا تقيم، واما العقل فدائم.

ونحن في الجامعات الغربية نؤمن بالعقل، لانه دائم. وتاريخ البشر يثبت ان العقل غلب دائماً اولئك الذين يحاولون ان يقيّدوه او يقضوا عليه. وقد بذلت هذه المحاولة مرة بعد مرة، واخفقت كل مرة. وستبذل مرة اخرى، والواقع انها تبذل الآن، وسوف تخفق. إن حياة الروح تواجه خطرين كلاهما قوي وملحّ: اما الاول فهو خطر الكسل، واما الثاني فهو خطر الاستبداد. ومن الجائز ان يكون العالم المتحضر قد بلغ في سنة ٢٠٠٠ من الثروة والراحة والانصراف الى الملذات السخيفة مبلغاً يقضي على الفكر، او يحصره في فئة من المديرين والخبراء الدهاة. ومن الجائز ايضاً ان تنحط التربية فتصير تدريباً على عمل، وترويضاً على مناهج في الصلات

العائلية والاجتماعية ، وان تنهار الحياة فتغدو ايأما متعاقبة متشابهة في بهجتها ، ويشمل كل يوم بضع ساعات من العمل الرتيب تليها حفلات مرحة في الخلاء وتسلية رخيصة . وهـذا كله ممكن ولكنه غير محتمل . بيد انه اذا وقع فالطاقة الكامنة في عقل الانسان لا بد واجدة منفذاً لها على الرغم من كل راحة وكل تسلية خفيفة . سوف ينجب مخترعون وباحثون ومفكرون ، مع انهم قـد يعدّون خلال بضعة قرون ، رجـالاً ذوي اطوار غريبة ، ويكونون اندر من القديسين او الكبريت الاحمر . فتاريخ المعرفة حافل بسير رجال على هذا الغرار ، وكل بحث خطير بدأ بفئة قليلة من الشواذ . ومن اغرب ما يبعث على الامل ان يطالع المرء تاريخ رجال العلم ، فيرى في الحين بعد الحين ، قيام فئة قليلة منهم يقبع احد افرادها في مكتب ، او يتمشى في حديقة ، او يطالع في مكتبة ، او يراقب ويجرب في معمل ، مكبّين جميعاً على الاهتمام بالاشياء التي لها قيمة ، يصونون عقل البشرية عن الموت ، وهم يفعلون ذلك على حين ترى الانسانية منصرفة الى حفلات باهرة او حروب إقطاعية لا تنتهي ، او يصيدون الايل مع الصباح ، او ينشغلون بالقيل والقال بعد الظهر ، وبحفلات الرقص الرسمية في المساء .

ومن الجائز ايضا ان تكون الكرة كلها في سنة ٢٠٠٠ قد خضعت لاستبداد شامل ، اكمل واشد من اشد استبداد

بلته حتى الآن في تاريخه الطويل الحافل بالبشائع ، فان لم يكن استبداداً واحداً شاملاً فقد يكون بضع حكومات مستبدة متفرقة في مناطق .

وثمة في شؤون الناس اتجاهان او ثلاثة اتجاهات تميل بنا الى هذا الظن . اما الاتجاه الاول فهو القومية — الاعتقاد بان جماعةً ما ، جنسيةً او سياسية ، تفوق جميع الجماعات الاخرى ، وان هذا الاعتقاد ينبغي ان يضخم ويرسخ في نفوس الافراد الذين ينتمون اليها . وقد اخذت قوة هذا الاعتقاد تضعف بعض الشيء في بعض ارجاء العالم ، اما في الارجاء الاخرى (وبخاصة بين الشعوب التي ظفرت باستقلالها منذ عهد حديث) فهو يشتد ويقوى سنة بعد سنة . وكم من رجل كان والده او جدّه يعدّ نفسه صاحب حانوت وحسب في البلدة الفلانية ، فإذا به اليوم يعد نفسه صاحب عقيدة ، وعلى استعداد لكي يستبق الاسنة والرماح ليقاتل خصوم عقيدته ويستشهد ملتفاً برايتها المجيدة . اما الاتجاه الثاني فهو النزوع الى سيطرة الدولة ، والاعتقاد بأن جميع وجوه النشاط بين المواطنين ، او اكثرها ، ينبغي ان تسيطر عليها الدولة ، وان تركيز هذه السلطة العظيمة في ايدي الموظفين الذين توكل اليهم السيطرة ، لن تفسدهم . وهذا الاعتقاد آخذ في الانتشار انتشاراً سريعاً ، ولعله يفوق في سرعة انتشاره كل نظرية سياسية اخرى ، وغالباً ما يدافع عنه

مؤيدوه دفاعاً تكثر فيه الحماسة والاندفاع على قدر ما يقل فهم المخاطر التي تنطوي فيه . ولكم يطيب للمرء ، لولا الالم ، ان يراقب الذين يؤيدون دولة بلغت فيها « الاوتوقراطية » اشدها ، فيراهم يصفون انفسهم بوصف « الاحرار » ويعلنون ان رجاءهم معلق بتحقيق « حرية جديدة » . ولكن المؤرخين يعرفون ان هذه البواعث العاطفية تتكرر في التاريخ ، ويفهمون على اسف منهم ، ان الناس كانوا فيما مضى مؤمنين بحق الملوك الالهي ، وكذلك ترى بينهم اليوم من يحب ان يؤمن بأن قدرة علوية تعصم موظفي الحكومة عن الخطإ .

اما الاتجاه الثالث فهو التقدم في البراعة العلمية التي تيسر على الذين لا خـــلاق لهم ان يسيطروا على شعب كبير مستعينين على ذلك بأسباب خلقتها الصناعة الحديثة . فالآلات تزيد قدرة الانسان ، وقـــد كان لويس الرابع عشر يحيط الذين يريد ارهابهم بحرس شاكي السلاح ، اما اليوم فاخفاء « ميكروفون » في بيت ، وبضع ادوات اخرى ، كفيل بتحقيق المرام على وجه ايسر واجدى . وقد كانت الحرب العالمية الثانية ، حرب علماء الى حد بعيد ، واحتمال قيام استبداد عالمي النطاق في المستقبل خليق ان يكون استبداداً علمياً حقاً .

وكذلك ترى ان حكومة تقوم قياماً كاملاً على القومية واشتراكية الدولة ، ويسيطر فيها الموظفون على البحث العلمي

وتطبيقه في كل ميدان من ميادين التعليم، خليقة ان تكون اضخم دولة مستبدة في تاريخ البشر. وقد تنبأ فريق من الكتاب الساخرين بقيام هـذا الطغيان، وفعلاً قامت امثلة عليه هنا وهناك. فقد انشئ حكم من هذا القبيل في روسيا بعد الثورة البلشفية، وحاول موسوليني وهتلر إنشاءه في ايطاليا والمانيا، ولكن نجاحهما كان قصير الاجل. وقـد وصف جورج اورويل في كتابه «١٩٨٤» قيام مثل هذه الحكومات المستبدة في ارجاء الارض خلال حياة الاحياء اليوم. اما الدوس هكسلي فقد تصوّر في كتابه «عالم جديد جريء» مرحلة تالية حيث تشمل السلطة المستبدة الارضَ كلها، ويصير البشر في ظلها اقرب الى الحشرات في عقولهم، ويعمد اصحاب السلطان الى اساليب التناسل والتوجيه التربوي في ذلك العالم، لتقسيم الناس الى اربع طبقات، او اربعة ضروب من نوع واحد، يشق على الطبقة الواحدة منها ان تنشئ اتصالاً فكرياً بينها وبين الطبقات الاخرى، ولكنهم جميعاً ينصرفون كالنمل في جحر ضخم محيطه ٢٥ ألف ميـل، فيتعلمون ويلعبون ويأكلون ويتناسلون ولا يفكرون مطلقاً. وان ديكتاتورية من هذا القبيل لمضطرة بطبيعة كيانها، ان تسيطر سيطرة دقيقة محكمة على عقول رعاياها، فتفرض فرضاً ما يسمح بطبعه في الكتب والصحف والمجلات، وكل ما يؤذن في إذاعته او تلفزته، او عرضه على المسرح، او بالفلم. واما هتلر الذي قطع شوطاً بعيداً على طريق إنشاء هـذا

النظام ، خلال سيرته القصيرة في المانيا فقد قال : إن الصحافة هي سلاح قتّال في عالم العقل شأنها كشأن الطائرة في الحرب . وقد باهى بقوله : « ان الصحفي (النازي) اليوم يعلم انه ليس كاتباً وحسب ، بل هو رجل له رسالة مقدّسة هي الدفاع عن مصالح الدولة (النازية) » . والديكتاتورية مقضيّ عليها بأن تكبت كتب النقد التي من شأنها ان تشجع المعارضة ، ولا تكتفي بهذا بل تخفي الحقائق وتدمر الوثائق وتمنع البحث والتعليم في نواح معينة ، وتحاول ان تحيل الرجال المفكرين الى عبيد عقليين للدولة الكلية القدرة ، بدلاً من ان تسمح لهم بأن يطيعوا السيد الوحيد المقبول في العالم ، بعد الله ، وذلك السيد هو العقل البشري . وهذا كله كفيل بان يكون سبب كثير من الشقاء ، وان يبدد الطاقة الحية في النافع من الناس ، ويؤذي بلا ريب مصالحها هي ، بإنكارها على الناس ان ينتفعوا بأفضل قواهم .

ولا بد لها من ان تخفق آخر الامر . فليس في الوسع ان تجرد الناس جميعاً من إنسانيتهم ولا بد من ان يبقى هنا وهناك من يفكر . وفرض على الفئة الحاكمة نفسها ان تمضي في التفكير . ومع كل جيل من المواليد ، يظهر مفكرون . وإنه لايسر ان تدمّر البشر تدميراً مادياً ، بجرثومة او انفجار من ان تدمّرهم تدميراً عقلياً . فالناس ضعاف يصيبهم الذعر وتتقلب عليهم ادوار الصحة والمرض والعاطفة ، ولكنهم

يحسنون الملاءمة لوضعهم ، والملاءمة تعني القدرة المتصلة على التغيير ، وتنمية قوى عقولهم . فقد خرجوا ، خلال بضعة آلاف من الاجيال ، من الادغال والكهوف ، بالفكر واحداث التغيير اللازم . وما دام الناس يعيشون على هذه الكرة ، فلا بدّ لهم من ان يتصل تفكيرهم ، ولن تثنيهم عن التفكير آية دكتاتورية مهما بلغت من التحكم ، ولا اشد الوان القسوة التي يبتكرها بعضهم ، ليكيد بها للبعض الآخر .

سعادة عميقة لا قرار لها : سعادة التفكير ، والبحث عن المعرفة من اجل المعرفة نفسها . ونحن ننفق شطراً كبيراً من حياتنا في حل مشكلات تواجهنا او لتجنب الم مباشر او لجلب فائدة معجلة . ان جانباً كبيراً من تدريبنا موجه الى الحصول على نتائج علمية — تصميم آلاتٍ وادارتها ، شراءٌ وبيعٌ وطبخٌ وتأثيثٌ وتثميرُ أموالٍ وإنفاقها . والنتائج النافعة التي نظفر بهـــا من اللجوء العمد الى وضع الخطط والتفكير المباشر ، تبلغ مبلغاً يصرفنا عن تلك السعادة الحقيقية التي لا قرار لها ، والتي تنبع من المعرفة الصافية . وقد ذاقها كل منا . فهي تولد في الاطفال ، وتذهب معهم الى المدرسة ، وما اكثر ما يقتلها هناك المعلمون « العمليون » . ولكنها تبقى حية في بعضهم ، وتدوم مباهجها مدى الحياة ، حين لا تبقى مباهج اخرى . ما اجمل ان ينفق المرء خمسين سنة او ستين يدرس هياكل الاسماك ، او الصلة بين المنطق

واللغة ، او تاريخ الانكا ، او الهندسة غير الاقليدسية ، او آداب اللغة الاسلندية ، او تشريح الدماغ . ان الحصول على معرفة جديدة في احد هذه الموضوعات وتدوينها وتنظيم ابوابها ، دون حرص على إفادة البشر الا بتوسيع نطاق فهمهم ، فهو خير نهج لحياة سعيدة نافعة ، يغلب عليها عند ختامها شعور الاسف بأنها لن تمتد خمسين سنة اخرى ، حتى يزداد المرء معرفة على معرفة . هذا هو ينبوع اعظم رضىً متاح للانسان وأصفاه ، الا ان يكون عمل الفنان المبدع ، او الطبيب الذي يبرئ المرضى . وهو علاوة على ذلك ، كما قال ارسطوطاليس ، مشاركة في عمل الله نفسه — حياة التأمل الخالدة على الدهر .

obeikandl.com

الفصل الرابع

الحدود المتأصلة في العقل

ليس الناس بآلهة ، ولا فيهم من الآلهة مشابه ، سوى في لمحات – ينكشف فيها لعيونهم شيء قليل من الحقيقة ، او يصنعون فيها شيئاً قليلاً من المعروف والخير . في الناس نقص عن الكمال وقصور . ومن الناحية الاخلاقية ، ترى جميع الديانات تبدأ بفرض مؤداه ان الناس بعيدون عن النجاح ، واما الناحية العقلية ، فترى جميع الفلاسفة فيها متفقين على ان الناس يخطئون كثيراً وانهم ضعاف دائماً .

وكثيرون من الذين اطالوا النظر في العقل البشري ظفروا بمنزلة في التاريخ لانهم كانوا على ريب من قواه . وفي هذه الجماعة تجد البرتغالي فرنشسكو سانشيز الذي نشر سنة ١٥٨١ كتاباً ممتازاً جعل عنوانه عبارة بسيطة ترجمتها : « ليس في الوسع ان تعرف شيئاً » ، ومنها ايضاً الاديب المعتدل الفكه ميشيل ده مونتاني الذي انفق سنين طوالاً من عمره يحاول

ان يفهم كنه نفسه ، واتخذ الميزان رمزاً لتفكيره ، وعبارة « من يعرف ؟ » شعاراً له . وعلى هـــذا الغرار ايضاً ذلك الضابط الروماني الذي سأل السيد المسيح احد الاسئلة القليلة التي لم يُجب عنها ، فقد استجوب المسيح ووجده بلا ذنب ، ولكن ساعة قـــال المسيح انه ولد « ليشهد للحق » سأله بيلاطس البنطي : « ما هو الحق » .

نقص الحواس والعقل

ليس في وسع احد ان يفكر تفكيراً مجدياً ان لم يعترف بما في العقل من حدود متأصلة في تركيبه . فحواسنا قليلة ومداها ضيق ، وليس بينها سوى حاستين (البصر واللمس) تساعداننا حقاً على توسيع نطاق معرفتنا . ففي جميع ارجاء العالم تقع حوادث خطيرة او ممتعة ولكن حواسنا لا تنقل انباءها إلينا ، او هي لا تستطيع . ان الامواج وتيارات الطاقة لا تفتأ تنساب فيما حولنا ، وحتى في اجسامنا ، ونحن لا نراها ولا نسمعها او نشعر بها . وفي طليعة اغراض العلوم ان تمدّ نطاق حواسنا المحدود بصنع عيون قوية نرى بها ، او بتحويل الظواهر التي لا ترى ولا تسمع الى حوادث في الوسع سماعها ورؤيتها .

واهم من ذلك شأناً ان تركيب عقلنا نفسه محدود . ومن البيّن ان عقول الناس تتفاوت ضعفاً ، فثمة عقل لا يستطيع

ان يدرك الرموز ، وآخر تعوزه الذلاقة في التعبير . ولكن كل عقل بشري محدود حداً قوياً . وهذه الحقيقة هي جوهر فلسفة عمانوئيل كانت ، فقد بيّن – بياناً معقداً ولكنه بيان حاسم – ان العقل البشري مقسور بحكم تركيبه ان يرتب ضروب خـــبرته بطرق محدودة ، تنتظمها صور معينة من الزمان والمكان ، مع ان تيار الحوادث نفسه قد تنتظمه صور اخرى مخالفة ، اذا ما خبرته عقول اخرى . ونحن لا يسعنا ، طبعاً ، ان ندخل في نطاق خبرتنا سوى جزء يسير من تيار الحوادث بكامله .

استحالة أنواع معينة من المعرفة .

ثم هناك انواع ذات شأن من المعرفة ، هي بطبيعتها ناقصة او مستحيلة . فمعرفتنا بذواتنا هي دائماً معرفة ناقصة . ومعرفتنا بالامور الالهية ، هي دائماً معرفة قاصرة .

وقد مضت قرون انصرف فيها عدد من الرجال والنساء ذوي الفطنة والتبصّر الى دراسة انفسهم وغيرهم من الناس في ميادين التربية والدين والسياسة والآداب والحياة الاجتماعية وغيرها من ضروب الدراسات النفسية . وقد كادوا يجمعون على ان معرفة عقول الغير تكاد تكون من المستحيل ، وانه من اشق الامور على المرء ان يفهم عقله هو . وليس في وسع احد منا ان يتنبأ بما قد يفعله اقرب اقاربه ، او هو

نفسه ، في المواقف الحرجة . وليس منا من يستطيع ان يقدّر نمو عقله وخلقه في المستقبل . والتاريخ السياسي ، اذا نظرت اليه من ناحية معينة ، الفيته سلسلة من التقديرات الخاطئه ، والمفاجآت التي تذهل النفس وتصدمها . ان معرفة نفسية الجماعة شيء عسير الى حدٍّ يثير السخط ، واما معرفة نفسية الفرد فتكاد تكون مستحيلة . وليس ثمة ريب في ان علم النفس خليق ان يتقدم في المستقبل تقدماً كبيراً وباعثاً على الرضا كتقدم الطب خلال القرون الخمسة الاخيرة . لسنا ندري ، ولكنه حتى الآن لا يكاد يعرف شيئاً عن الوان نشاط العقل .

وعلى ان معرفة ما وراء الطبيعة أخطرُ شأناً فانها تساويها مشقة . وقد تيسّر امرها على بعضنا بما كشف الله عزّ وجل منها عن طريق وسيط او رسول . وحتى هذا الكشف محدود النطاق ، فهو لا يبين لنا شيئاً عن مسائل تهمّنا بوجه خاص وتبرز امامنا متى بدأنا نفكر . ولعلنا لا نجد اكثر من مئة إنسان في تاريخ البشر تمكنوا من ان يدركوا كنه « الوقت » . وقليلون هم الذين نفذوا الى اعماق العلاقة بين الجسد والروح ، او استطاعوا ان يفسروا طبيعة الموت . اما طبيعة الله ، عزّ وجل ، فهي تكاد تكون بحكم تعريفها شيئاً لا يدرك ولا يعبّر عنه — الشيء المطلق . فنحن نعرف « أنّ هناك » ولكننا لا نعلم « ما هناك » .

امقضيٌ علينا حتماً بالجهل الذي لا ينجلي ؟ الا يستطيع العلم ان يسير بنا الى الادراك الكامل ؟

كلا . ففي ارجاء العالم اناس — ومنهم علماء — بلغت منهم السذاجة مبلغاً حملهم على الاعتقاد بأن جميع المشكلات تعنو للعلم فيحلها ، ان عاجلا وان آجلا . وكلمة « العلم » نفسها اصبحت صيحة غامضة تبعث الثقة ، ولكن معناها مبهم وان كانت ذات زخم عاطفي قوي . ولفظ « العلم » يطلق الآن على اشتات موضوعات لا يصلح لها ، ويتخذ ستاراً للتفكير في عشرات من الموضوعات ، تفكيراً تعوزه الدقة والشمول . ولكن ، حتى اذا اخذنا العلم ، بأدق ما وضع له من تعريف ، لم يكن لنا بد من التسليم بأنه ناقص ، شأنه كشأن جميع ألوان النشاط في العقل البشري .

ولن تجد شيئاً اسمه « العلم » ، بل هناك علوم ، وهي اقسام للمعرفة كل منها استقام امره بطريقة خاصة . وهي قلما تتفق ، وفي موضوعات كثيرة ، يندر ان تلتقي او ان يكون ادماجها في كلٍّ منسجم شيئاً ممكناً . والناس الذين يستطيعون ان يدركوا من العلوم قدراً يتعدى بسائطها هم قلة . وليس بينهم من جمع كل معـــارفه في صورة كونية واحدة . قد يتم ذلك في المستقبل ، لان الجانب الاكبر من

العقل البشري لا يزال مهملا ، وبخاصة لان قدرته على ان يجمع ويركب ، قـــابلة للنمو الزاخر . وحتى اذا تحقق كل هذا ، فإنه يحتاج الى مجهود عقلي قل بين الرجال والنساء من يقدر عليه . ان العلوم تنقل الى عامة الناس حقائق ، ولكن إدراك كنه الحقائق يحتاج الى رجل عظيم .

ايتها الزهرة النابتة في شق الجدار

انتزعك من الشق

احملك في يدي ، جذرك وكلّ شيء فيك ،

ايتها الزهرة الصغيرة — لو كان في طاقتي ان افهم

ما أنت ؟ جذرك وكل شيء فيك ؟ وفي مجملك ؟

لقدرت ان اعرف ما الله ، وما الانسان .

***

وهذه المعرفة من وراء العلم — ومن اشد بواعث التواضع ان يمشي المرء بين رفوف الكتب في دار كتب جامعية كبيرة . ها هي ذي كتب تعدّ بالمئات ، بالالوف ، بمئات الالوف ، رفٌ وراء رفٍّ ، فوق رفٍّ ، وسيل جارف من الكتب لا ينقطع ، وهذه الكتب الجديدة تزاحم الكتب القديمة ،

فتدفعه الى الانزواء في مؤخرة الرف او في غرفة في اسفل الدار . لن تجد احداً من البشر قد طالعها جميعاً ، وليس في وسع احد ان يطالعها ، او ان يتمكن من نصف الموضوعات التي ألفت فيها . علم الاجتماع ، اللهجات الفارسية ، تاريخ المسرح ، الكيمياء الحيوية ، فلسفة القانون ، علم الهزات الارضية ، علم الضوء ، نظرية المصارف ، علم الفيزياء الفلكية ، الدين المقارن — كشف من الموضوعات يبعث على الاعجاب ، ويثبط الهمة . وما كان في وسع احد ان يزعم انه يعرف كل ما يعرف ، وان ينشىء منه نظاماً محكماً سوى في العصور الواثقة بكل شيء ، كمثل القديس توما الاكويني في العصور الوسطى ، وارسطوطاليس ، « سيد العارفين » ، واحكم البشر في يونان القديمة . ولكن تلك المعرفة كانت على افضل تقدير ، رجاء وحسب . اما اليوم فقد صارت شيئاً مستحيلاً . وما ان يسير المرء بين رفوف الكتب ، وينقل نظره بين الكتب ذوات العنوانات الجريئة المجزية ، حتى يتمنى تمني العالم او تمني القديس — فيبتهل الى الله ان يطيل حياته على الارض ، متجاوزاً عن الخلود في الآخرة .

ولكن ذلك كله لا يكفي . الكتب نفيسة ولا ريب في قيمتها ، وهي علمية ، ولكن كل انسان يعرف ، حتى مؤلفوها يعلمون ، انها ناقصة . وكل عمل من اعمال العقل هو عمل قاصر . وفي سعينا الى فهم العالم وحياتنا وأنفسنا ، ليس ثمة مفرّ من

احتياجنا الى اساليب اخرى ، وهي اساليب تفوق في اكثر الاحيان اي شيء تسبغ عليه صفة العقل .

الخبرة من وراء المعرفة

كل رجل مهما يكن بليد العقل ، سقيم الخيال او مهما تكن حياته محكمة النظام مسيّرة باحكام العقل ، يُلقي نفسه عرضة لالوان من الخبرة او الادراك تتدفق عليه من مصادر وفي مجار ليس لها صلة بالعقل . وهي خبرة زاخرة القوة ، وتعد جزءاً من فيض الحقيقة الكلي ، بيد انها لا يمكن حسبانها « معرفة » بمعناها المقبول . فهي واقعة وراء حدود المعرفة والصوفيون لا يفتأون يعلنون هذا ، اما الفنانون فيعرضونه لنا في اشكال وألوان رائعة ، يشق على العقل ان يدركها . وهذه الحقيقة هي سر الموسيقى او جوهرها . انها ملك كل منا ، ولكننا كثيراً مـــا نخفيها عن انفسنا — في البلاد الغربية على الاقل .

وهي تتجلى على اوضح وجه واقواه في الموسيقى . ان الجلوس في غرفة هادئة عند المساء ، والاستماع الى اربع آلات وترية تتحدث فيما بينها في مجموعة متباينة عجيبة من الكلمات والاصوات ، التي تضحك وترقص ، وتبكي وتحزن ، وتجادل جدالاً نشيطاً ، او تتنافس تنافساً ملحاً ، ولكل منها كيان مستقل ولكنها مع ذلك تستمتع بحياة مجتمعة متآلفة ، ليبين

لك ان شطراً كبيراً من خبرتنا ، وجانباً من افضل ما يدخل في نطاقها ، يقع وراء حدود المعرفة . وعلى هذا الغرار ايضاً ان تجلس في بهو كبير للحفلات الموسيقية ، وان تسلم نفسك مع آلاف آخرين للنشاط الزاخر المتدفق من روح بتهوفن ، وقد انبعث انبعاثاً عجيباً في تيار متحرك من النغم المنطلق من خمسين آلة موسيقية ، فتتغلب خلال نصف ساعة على الوقت والتغير . او ان تجلس وحدك — ولعل هذا افضل ما يمكن — الى البيان وتعزف عليها احد الحان باخ ، وان تحس ذلك العقل الهادئ النفاذ ، يتكلم في اصابعك انت ، ناطقاً بحقائق يعجز المرء عن ان يبلغها وحده ، ومروضاً نفسك على اعمق التأمل واسمى السكينة .

نعم ، لجميع الفنون معانٍ ، ومعانيها لن تدرك بالتفكير المنطقي . فالقصيدة الجيدة ، والمسرحية البارعة ، وحركات الراقص او الراقصة ، لا تفسّر . ان الياباني الذي يصور غصن صنوبر تعلوه طبقة كثيفة من نثار الثلج ، والمكسيكي الذي يحوّل قطعة من حجر الى مثال رب مهول ، إنما يعلن رأياً في الكون ، وإن كانت ترجمة هذا الرأي الى شكل عقلي ، شيئاً متعذراً . فالاساطير العظيمة في كل ثقافة هي آراء في الكون ، من هذا القبيل ، وكذلك الشعائر التي تصحب الاساطير في اغلب الاحيان . فهي تفرغ الشيء الذي يقع خارج نطاق العقل في قالبٍ وتسبغ عليه سلطاناً ، وهو ما وصفه الشاعر الرقيق هودجسون في صورة بارعة قال :

للعقل اقمار ، ولكنّ اقماراً

غير اقماره تنعكس على مرآة البحر ،

فتحيّر علماء الفلك

ولكنها تبهجني .

والخبرة من وراء المعرفة ينالها كل امرئ في زمان ما من ازمنة الحياة ، من مصدرين عريقين اصيلين هما النشاط البدني وحب الطبيعة . فطائفة من اقدم الصور التي عثرنا عليها تظهر الناس في جماعات يرقصون ويصفقون ايديهم ، حتى ليكاد المرء ان يسمع قرع طبولهم ، متخطياً خمسين الف سنة تفصلنا عنهم ، واذ يحدق فيهم يحس ان قلبه قد اخذ يخفق خفقانا مطرد الايقاع واقوى . والشعراء العظام كانوا يحبون البحر ويسبحون ساعات متوالية على شاطئ صاخب ، او يركبون غاربه في زوارق صغيرة ، فيحسون الريح والامواج قد صارت جزءاً من كيانهم . والحكماء السعداء احبوا الجياد ، ونالوا فرحة عظيمة في امتطاء صهواتها ساعة بعد ساعة في دروب الغابات ، يخيم عليهم الصمت ، ولكنهم يستشعرون دون انقطاع بحقيقة لا يمكن التعبير عنها . وخلال عصور التاريخ ، منذ ان انبت الله ، عز وجل ، الحديقة الاولى ، احببنا الاشياء التي تنمو وضروب الحيوان والطير وفهمناها ، واجلنا العواصف والمد والجزر والمطر وضياء الشمس وحاولنا

ان نفهمها . فاصغر الاشياء في الطبيعة تقف على قدم المساواة مع اعظمها فيما تنطوي عليه من عجب ومعنى . ان النظر الى الطائر المعروف بزمج الماء يركب متن الريح ، او الى فراشة تحك ورقة ، او الى نهر ينحدر في هاوية ، لخبرة نفسية عميقة . وهناك رجال كثيرون ، ادركوا في آخر الأمر ، انهم يستطيعون دون الاستعانة بالعقل البشري ان يفهموا طائفة من اعظم اسرار الكون ، اذ يجلسون وحدهم ، بعد تصعيد يوم كامل في الجبال ، حول نار موقدة ، على سفح جبل كالح ، ثم تأخذهم سنة النوم على جسد الارض الضخم ، تحف بهم نسائم الفنن ، حتى اذا اسفر الصبح رأوا الشمس تشرق في علاها ، كما فعلت يوم الخليقة .

واخيراً هناك ناحية اصيلة من نواحي الخبرة ، تقع على الاكثر وراء نطاق الادراك العقلي ، وهذه هي ناحية الاخلاق والدين . فقد انبأنا المعلمون العظام مرة بعد مرة ان الحكمة والصلاح ليسا شيئاً واحداً ، وان حقائق الدين لن تدرك بالعقل ، وقد اهملنا ما علمونا اياه مرة بعد مرة ، فنرى رجالاً ونساء من ذوي الادراك ، لا يفتأون يحاولون افراغ الاخلاق في معادلة رياضية او صيغة قانونية ، وان يقضوا على « اباطيل » الدين بأن ينكروا على المتعبدين حق العبادة ، فكانوا ينتهون دائماً الى انسحاق قلوبهم ، ثم الى جثوّهم على ركبهم متضرعين ، كما جاء في قصيدة براوننغ عن الكاهن الطموح :

وإذ نحسُّ بأننا في حصن حصين من الامن ،

يمسُّنا مشهد غروب ،

او خيال من كأس زهرة ، او موت احدٍ من الناس ،

او نهاية نشيد لأوربيديس ،

وحسبنا ذلك ، ليثير فينا خمسين لونا من ألوان

الرجاء والخوف ، عريقة وحديثة في آن ، كالطبيعة نفسها ،

فتنقر ، وتقرع النفس ثم تدخلها ،

وتتشابك ايديها ، وترقص هنا ، حلقة غريبة

حول صَنَم قديم ، قائم مرةً اخرى على قاعدته

ـ قاعدة « لعلَّ » العظيمة

وهذه الحقيقة هي احدى الحقائق التي جاء السيد المسيح ليشهد لها . فمن المفيد ان يتتبعه المرء في جداله مع اهل العقل وذوي الفطنة من اهل عهده ، وهو يتبع الحجة القوية بمثلها ، وقد توافدوا عليه ، ولم ينقطعوا ، يوجهون اليه اسئلة صعبة ، يساورهم الرجاء ان يثبت في اجوبته انه جاهل بالنصوص الدينية (وخاصة ما كان له صلة بدقائق الشعائر والشريعة)

او انه منكر للاخلاق. وكان هو يكر عليهم احياناً بأسئلة عسيرة فيعجزون عن الرد عليها، ولكنه كان على الاكثر يحلق فوق ما يورطونه فيه، على اجنحة قول نبيل بسيط صوفي، فيخرسهم القول ويصبح بياناً خالداً لحقيقة لا يمكن ان يدركها المرء اذا استعان بالعقل وحده.

وثمة قصيدة نثرية قصيرة غريبة كتبها فرنسي مشهور، وجعلها دعاء اوحته اليه وقفته على الاكروبليس، قلعة مدينة اثينا، وقد وجهها الى الربة اثينا التي يتجسم فيها العقل الهادئ. اما الكاتب فهو ارنست رنان الذي نشأ في الكهنوت الكاثوليكي، ثم تركه. وقد كان فقيراً، طموحاً، مجتهداً، فطناً، فرفع نفسه الى اعلى طبقة من العلماء في القرن التاسع عشر، وتوفر على دراسة لغات الشرق الادنى وتاريخه.

فقد كان رنان من المؤمنين بالعقل وألّف كتابه في تاريخ المسيحية واحوالها، ليقضي على الوهية السيد المسيح، ولينكر ان المسيحية دين عالمي، وان التاريخ الروحي للعالم اليهودي المسيحي انما هو سلسلة من المغامرات العاطفية، وان شأنها اقل كثيراً من عمل العقل البشري عملاً متصلاً. وفي قصيدته «دعاء على الاكروبليس» يعرب رنان عن ايمانه بالعقل البشري، ويمجده ويرفعه الى مرتبة الالوهية، وينظر الى العالم، في عصره، على انه كتلة من الوحشية والسخافة، ولن ينقذ نفسه الا اذا عاد الى عبادة العقل.

ولكنّ رنان لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه، فتراه يعترف وهو في هيكل العقل الذي عدت عليه عوادي الزمان، بأنّ العقل لا يكفي، ويعلن انك لن تجد فلسفة واحدة او عقيدة ما، هي الحقيقة المطلقة في ذاتها — ولو انها وجدت لغلبت كل منافس لها لا يبلغ شأوها من الكمال، فتبقى هي وحدها. ولكن العالم بلغ من الكثرة والغرابة مبلغاً يجعل فهمه والسيطرة عليه امراً صعباً حتى على العقل. وهنا ينتهي الدعاء، بروح من الريب المتشائم، بدلا من روح العجب والرجاء الذي استعان به آخرون (ولم يكن الاغريق انفسهم الذين قدّسوا العقل اقل استعانة به) في مواجهة الكون. ولكن رسالة الدعاء هي رسالة صحيحة. فقد بلغت الخليقة والخالق وخلائقهما، مبلغاً من التنوع والعجب، يعجز العقل عن ان يدركه إدراكاً كاملا. ومن المستحيل ان تحسن الانتفاع بالمعرفة ان لم تسلّم بحدود قدرتها.

الفصل الخامس

الجبار المصلوب

في الفكر الاغريقي ، تجسيد آخر للعقل (غير اثينا) تظهرنا عليه مأساة رائعة مدارها جبّار مصلوب اطلقوا عليه اسم بروميتيوس : « الذي ينظر الى امام » ، « البعيد النظر » ، « الباحث » . تراه في مستهل الدرامة ، يسمّره الى رأس صخرة في جبال القفقاس القاحلة ، وحشان يمثلان القوة والعنف ، فقد ندبهما ، الكائن الاعلى ، زفس او الاله ، الى انزال العقاب ببروميتيوس لانه بحث عن اسرار اراد الاله ان تبقى سرّاً مختوماً ، ولانه اباح ما كشف منها للناس من اجل خيرهم . وهو كأيوب تحت مسوح رماده ، يعلن اعلاناً حازماً لا ينثني ، انه يأبى ان يقبل عذاباً لا يستحقه ، وانه لن يستسلم ، وان الاله ظالم . فيزوره — في الدرامة — آخرون ممن حلّت بهم قسوة الاله ونقمته . واخيراً يُعرَض عليه الوئام اذا خضع للاله ووعده بمساعدته على الحكم . فيأبى . واذا الارض

تنشق فيهوي فيها البطل المصلوب ، الى عذاب اشد ، الى نار الجحيم الابدية .

ومع ذلك فالاسطورة لا تنتهي عند هذا الحد ، ومما يؤسف له اشد الاسف ، ان المأساة التي كتبها اسخيلوس وعنوانها « بروميتيوس المقيد » قد ضاعت ، ففي مكان ما في القرون المظلمة التي كانت نهبـــاً للحرب والهمجية ، فقدت النسخة الاخيرة من هذه الآية الادبية الرائعة ، مزّقها لصٌ خائب ، او حرقت في مكتبة حل بها الخراب ، او ابتلعتها — كما ابتلعت بطلها — زلزلة مدمّرة . ونحن نعلم ان الشاعر ، انتهى بعبقريته العلوية ، الى وئام نهائي بين العقل والاله — بين بروميتيوس وزفس . وحيث نجد العقل قـــد عجز عن الالتئام مع القوى الاخرى التي تتكون منها الحقيقة ، فهناك المأساة ، وهذه هي المأساة التي تمكن اسخيلوس من حلّ عقدتها ، كما حلّتها الشاعر في ختام سفر ايوب . وليس في وسعنا الآن ان نعرف كيف تمكن اسخيلوس من بَعث الحقائق الاسطورية ودمجها بعضها في بعض ليظفر بالحـل ، الذي توخّاه . ولكن الشيء الوثيق ، هو انه اصطنع من تنافر بادٍ لا حد له ، بين المعرفة وسائر انواع الخبرة ، تآلفاً رائعاً كالتآلف الذي تظفر به الارواح الخالدة .

فان لم نبذل نحن الجهد اللازم يظل هذا التنافر قائماً ولا ينتهي . ان للمعرفة قيمة لا تقدَّر ، فالفكر هو سر انسانيتنا ،

ومع ذلك فالفكر والمعرفة قاصران ، واذا اعتمدنا عليهما وحدهما وحسب ، فلن نبلغ كامل انسانيتنا . ولا بد للبحث والاستكشاف من ان يمضيا في دفع حدود المعرفة الى ما وراء نطاق الحس ، والى الاعماق الخفية ، في الماضي ، او رحاب الكون ، او عقول الناس . ومع ذلك فلن يكون في وسعهما ان يفهما شيئاً ما فهماً كاملاً ، او ان يكونا اكثر من عنصر واحد بين العناصر التي تكوّن خبرتنا . اما الحد الاخير للمعرفة فيلخص في كلمات احد فلاسفة القرون الوسطى ، قال :

جميع الاشياء تنتهي الى ألغاز .

obeikandl.com